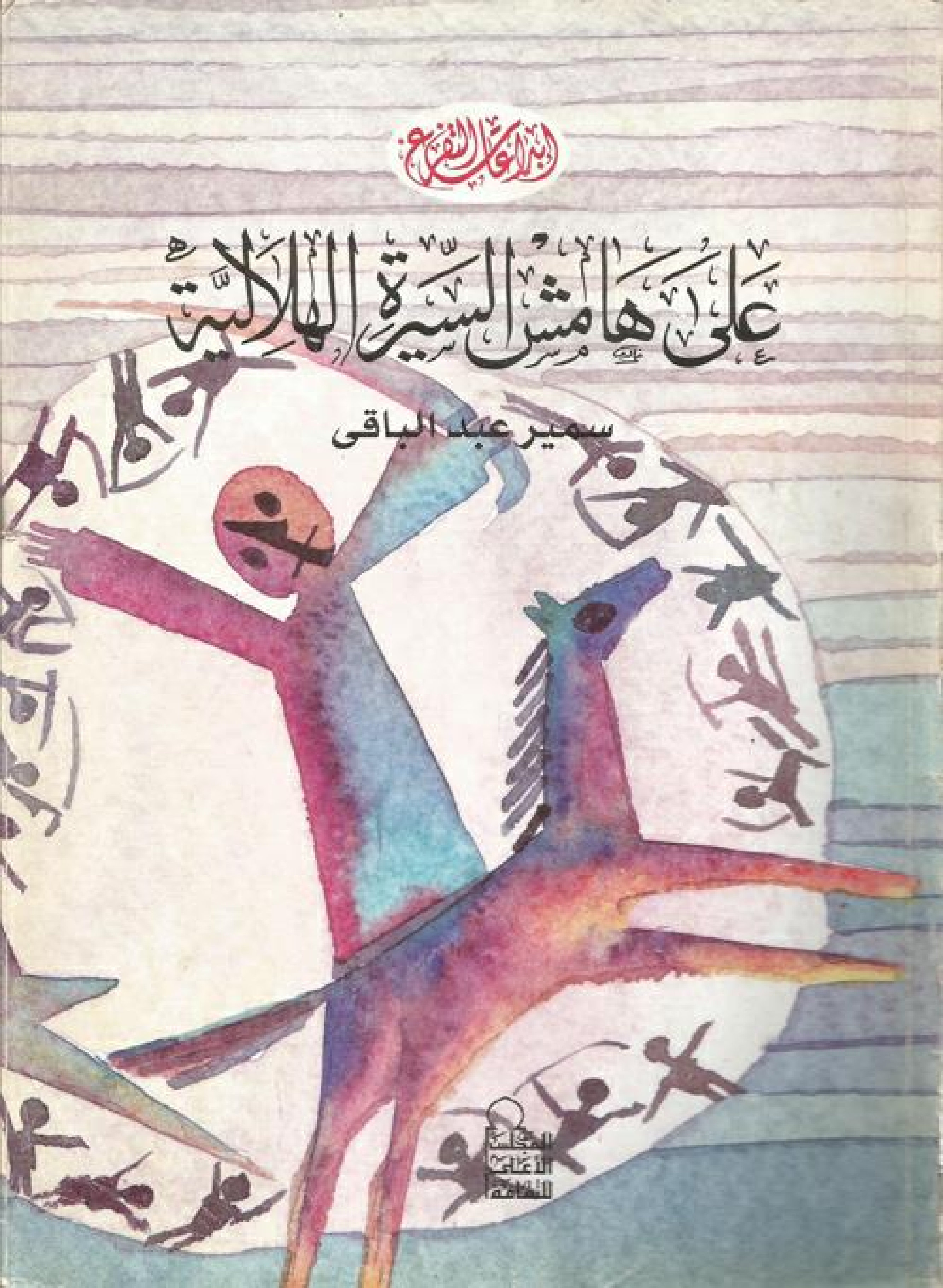
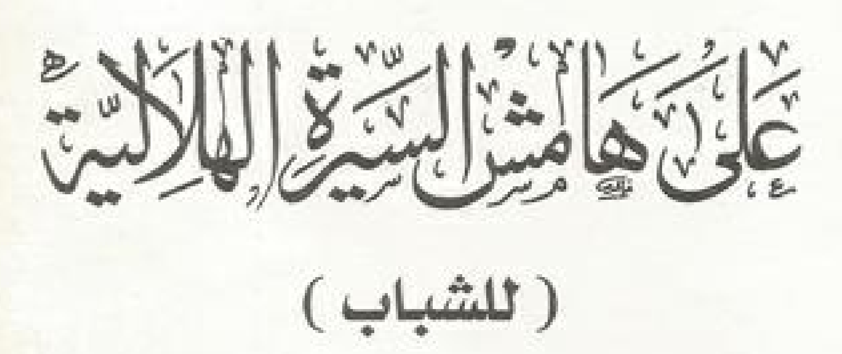

على هامش السيرة الهلالية
سمير عبد الباقى
المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

إبداعات التفرغ

[٢٦]



(للشباب)

سمير عبد الباقى

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : على هامش السيرة الهلالية (للشباب)

اسم المؤلف : سمير عبد الباقى

الطبعة : الأولى ٢٠٠٥

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 .

الفهرس

أول بداية القول

الحمد لله ..

الذى جعل سيرة الآباء وتاريخ الأجداد .. عبرة تنير طريق الأولاد ، وخبرة يتوارثها الأحفاد. ولما كانت سيرة « بني هلال » من أجمل ما رواه الرواة ، ومن أحلى ما تغنى به الشعراء فى الأفراح وليالي السهر وأمسيات السمر، وتناقلتها الأجيال عبر السنين، وحفظتها ذاكرة المصريين وغير المصريين ، لذا وجدنا أنه واجب لاغنى عنه أن نعيد رواية أجمل ما جاء فيها من حكايات إنسانية وصور ونماذج بشرية فى أكثر مناطقها وأحداثها درامية .. فى صياغة جديدة تناسب مزاج الأجيال الجديدة وبطريقة ممتعة ومفيدة ، محاولين الاحتفاظ لها بطبيعتها القديمة الفريدة ..

لكى لا نتوه فى تفاصيلها العديدة ودروبها المتعددة المديدة .. باختيار المناسب من بين تلك التفاصيل ، ماله معنى إنساني خالد ودائم، وما يحمل من سمات الصراع الدرامى بين الخير والشر وبين الموهبة والغباء .. وما بين نزعات العدوان وأحلام العيش في سلام، وما بين حب الوطن وآلام الغربة .. بشرط ألا يغفل هذا طرافتها وسحرها وغرابتها .. ولا نهمل مابها من متعة وإثارة .. وغير ذلك من السمات والصفات التى جعلت منها سيرة متفردة بين غيرها من السير الشعبية التي حفظتها لنا ذاكرة الشعب وبحيث يقرأها الصغار والكبار ، فلا يملون ما احتوت عليه فى شكلها القديم ، من تفصيل وتكرار ، ولا يفقدون مع الصياغة الجديدة ما كان لها من سحر ولا ما احتوته من أسرار ولا ما ذخرت به من قيم وأفكار .. وما حوته من إثارة وتشويق ، وبطولات وشخصيات حية مؤثرة .. لننعش بها ذاكرة الأجيال الجديدة، ونضع فى عقولها بصيصاً ولو خافتاً من الاستنارة .. والإيمان بإنسان هذا الوطن على مر الأزمان ..

سائلين الله أن يمدنا بالصبر على تحمل الجهد الذى تحتاجه المهمة ، وبالقدرة على حمل الأمانة وما تتطلبه من صدق وهمة ..

بشارة النصر ولعنة الشتات

اندفع هلال بن عامر خارجاً من الخيمة بحثاً عن نسمة هواء منعشة ترطب صدره في هذا الليل الحالك السواد ، وتزيح عن نفسه الانقباض الشديد الذى يعصر قلبه المحاصر بالترانيم الحزينة تهمهم بها النساء فى الخيمات المحيطة المجاورة .

– ما بال هؤلاء النسوة ينحنَ هكذا فى استقبال المولود الجديد ؟ كأننا نزف أطفالنا للموت قبل أن يتنفسوا أول أنسام الحياة .. ما هذا الفأل السئ ؟!

كان الجميع ساهرين فرحين ينتظرون مولد ابنه الأول ، لكن النغمة الحزينة التى طاردته إلى الصحراء .. كانت نفسها التى تودع بها النسوة قتلى القبيلة وموتاها .. فأخذ يبتعد موغلاً فى ليل الصحراء فى محاولة عقيمة للخروج من أسر هذا الشجن الرهيب ، الذى جعل الليل عديم القمر أكثر رعباً وظلمة .

ميراث ثقيل ..

ورثه الأبناء عن الأجداد من التغلبيين والبكريين .. الذين ظلوا يتقاتلون أربعين عاماً أو تزيد فيما بينهم طلبًا لثأر مستحيل .. اشتعلت من أجله حرب البسوس ليروح ضحيتها الآلاف من أبناء وبنات القبيلتين خلال سلسلة طويلة عنيفة من عمليات القتل والقتل المضاد .. بعد مقتل ملك التغلبيين كليب غيلة على يد جساس فارس البكريين بتدبير عجوز النحس الماكرة إنتقامًا لمقتل أخيها التبع اليماني، فاوقدت ناراً لا تنطفىء يزيد اشتعالها الدماء التى تسيل كل يوم على الرمال بحاراً تفيض قبل أن تغيض ..

فما العجيب إذن أن يصبح استقبال المواليد الجدد طقسًا حزينًا ، فالجميع من نسل القبيلتين على حد سواء رهينة للموت قتلاً .. طال بهم العمر أو قصر ..

أربعون عاماً كان هذا هو المصير والقدر ..

قدر محتوم لا هروب منه ولا مفر حتى شلت الأيدى وكل البصر، فما العجيب أن يصبح الحزن غذاء يوميًا للروح حتى فى ساعات الفرح ...

همس هلال بن عامر بهذا لنفسه وهو يتأمل بؤر النيران المتفرقة وسط مضارب القبيلتين .. تحاول أن تخفف عبئًا من ظلمة وبرد تلك الليلة العديمة القمر .

لكن السؤال لم يجد إجابة إلا في تلك الآهات الحرى التى انطلقت من بين شفتيه تغالب دعواته الهامسة أن يكون المولود القادم ذكرًا ..

قال الراوى ..

لما غزا التبع اليمانى بلاد تغلب وديار بكر اختطف جليلة أخت جساس البكرى وزوجة كليب التغلبى .. شقيق الزير سالم أبى ليلى المهلهل .. ليتزوجها غصبًا فاتفق الثلاثة على تحريرها وقتله انتقامًا لشرفهم المهان ..

وحددوا الوقت والزمان .. ودبروا التسلل إلى خيمته - بمساعدة جليلة - ذات ليلة حانكة السواد ، متخطين كل ما أحاط به نفسه من رجال وعتاد ...

فلما أحس بهم . وبالموت الذى يترصده على حد سيوفهم .. تنبأ لهم فى إصرار من يكشف ويعرف الأسرار .. أن من سيقتله منهم قبل غيره .. سيكون السيد على الجميع ويكون الكل عبيداً رهن أمره . قائلاً فى صوت ضحية محاصرة :

- ضربة السيف التى ستشق قلبى ..

ستحدد مصير الملك من بعدى .. من يقتلنى يملك عرشى ! .

هكذا قدر وهكذا سيكون .. العرش والتاج حق للقاتل وحده ..

وانتبه الزير سالم لمكيدة التبع التى يريد بها أن يبث بينهم الفرقة ويجعلهم يتقاتلون ويقتل بعضهم بعضًا .. فاتفق على قتله فى الظلام بضربة واحدة .. ليقتلوا معه بذرة الخلاف التى ألقى بها فى حقلهم ..

وكأنما الأقدار كانت تسخر منهم .

إذا اعترف كليب بعد أن أجلسوه على العرش .

إنه لم يضرب التبع بسيفه . إذا تملكه حين أطفأ الزير النور فى الخيمة .. رعب شديد بسبب الظلام .. فشل يديه. لكنهم لم يعيروا اهتمامًا لهذا الاعتراف الفاضح الفاجع ..

واعتبروه من باب الزهد فى العرش أو من ضرورات التواضع، إذ كان انتصارهم على التبع وتخلصهم من سطوته .. كافيًا لصرف الأنظار والنفوس عن التأمل والتحقق من مقولته ..

لقد وحد مقتل التبع بين بكر وتغلب .. وهذا يكفى ..

كما تمكن سالم بحكمته ، أن يقنع جساس بالموافقة على أن يصبح كليب – زوج شقيقته – الملك الذى سيوحد الجميع تحت مظلتها ومظلته ...

ولكن قلب جساس لم يعد صافيًا تمامًا ، إذ تملكه إحساس قوى أنه قد غرر به ، فلم يعد ينام إلا لمامًا ..

ولما كان التغلبيون هم أهل الحرب والقتال وهم الأقوى فى العتاد وفى الرجال ..

ولأن البكريين فى العادة كانوا أهل الرعى ورعاية النخيل وتطهير الآبار والاشتغال بشئون الكلأ والأرض ..

ظل فى قلب جساس شئ ما .. دفينًا .. يدفعه إلى عدم الرضا والخضوع ويغريه بالرفض ..

وقانا الله وإياكم شر الخضوع للغرض الذى هو فى الحقيقة وقوع فى أسر المرض ..

* * *

أشعلت العجوز الحقود وقلبها محروق .. ملآن بشوق الانتقام لأخيها .. قالت لجساس: أجرنى .. صرت بلا جيرة .. وأنت سيد قبيلتك ولك حرية الخيرة ، أم أنهم من سلطتك جردوك .. يوم سرق الكليب حقك فى الملك وحرموك ...

وأشعلت العجوز فى قلب جساس ناراً كان يحاول إطفاءها .. فصار يعلنها ولا يهتم بإخفائها ..

وصبرت العجوز حتى سنحت لها الفرصة التى تنتظرها ... فأطلقت ناقتها البسوس فى كروم وبساتين كليب تأكل من أشجارها .. فتصايح الحراس عليها ولحقوا بها وعقروها .. ولما تصدت لهم العجوز ضربوها .. فمضت تولول وتستجير بالناس وتعلق إهانتها فى رقبة جساس ..

واعتبر جساس ما حدث إهانة ما بعدها إهانة ..

فمضى غاضباً إلى كليب طالباً ما سلب منه من مكانه .. تلك التى لم تعد تساوى عنقود عنب وكرم دمرت أغصانه ..

وكلما حاول كليب تهدئة جساس .. زاد غضبه وطالب بدم الحراس .. فالناقة وصاحبتها فى جيرته .. وتحت حمايته ..

ولما سخر كليب من هذا الطلب غير المعقول ..

طعنه جساس طعنته المهول .. التى أشعلت الغضب فى القلوب والعقول ..

وظلت نارها مشتعلة لأربعين عاماً وقودها الأرواح والنفوس .. فيما عرف عند العرب بحرب «البسوس» ..

وأعلنها الزير سالم : لا أصالح .. إلا أن يعود كليب حياً . يطلب العدل المستحيل .. فأرسل الآلاف من أبناء تغلب وبكر إلى الموت جيلاً بعد جيل ..

وغطت الصحراء نيران الغل والغضب ..

ولم يستطع أحد إطفاء اللهب فصارت أغانى الفرح تعزف على الحان الحزن .. فالأطفال يولدون وقد عرفت مصائرهم ..

وترك البكريون رعاية الكلأ والغنم والجمال ...

وتعلموا وتفنّنوا فى فنون القتال .. وظل القتل والقتل المضاد بين بكر وتغلب .. يطارد القبيلتين كالقدر المهيمن والمعذبِ .. وما دام الموت قد أصبح شغل الجميع الشاغل .. تركوا أمور الحياة في يد العبيد والإماء .. فجفت المراعى وردمت الرمال عيون الماء ..

وسبحان من له ملك الأرض .. والسماء ..

* * *

ابتعد هلال بن عامر كثيراً فى جوف الصحراء وعمق الليل .. ولكن لحن الحزن ظل يلاحقه ويحاصره ..

صاعداً مع زفرات قلبه لرأسه ملاحقًا مشاعره ..

فهو نفسه قد ولد يوم موت جده هجرس بن كليب المقتول غيله .. وكأنه يؤكد للقبيلة ثنائيه الموت والحياة .. الميلاد والقتل ودورهما فى رسم مصير القبيلة .. ما الغريب إذن أن يلون الحزن ألحان الفرح .. ألم تكن تلك الأنغام الحزينة هى التى تفتحت عليها أذنية .. حزناً على موت جده فى نفس اللحظة .. ليمتلأ قلبه الغض منذ مولده ويفيض بكل هذا الألم والشجن الذى تثيره هذه الصحراء الملعونة .. المسكونة بأرواح القتلى من الجانبين .. عبر سنين وسنين تطارد بإصرار وعناد كل الأحياء بأنين أشباح الميتين من ضحايا .. وقاتلين .

وفجأة .. صمتت موجات لحن الحزن، وارتفعت صيحات البشرى بقدوم المولود، والتقطت أذناه على البعد بشارة مجئ الولد الموعود .. فافتر فمه عن ابتسامة ونزلت من عينه دمعة تعبر عما يجيش فى صدره من فرح .. وقال :

– المنذر .. نعم هو المنذر ولدى . مرحبا بك يا منذر ، كم أحلم أن أخرجك من دائرة الحزن والموت هذه يابنى .. نعم لابد أن يكون عالمك أكثر بهجة وفرحا .. ولتكسر بقدومك حلقة الموت الوحشية .. وليكن من أجلك عالم تسوده المحبه .. والسلام !! ..

قال الراوى ..

كان الإسلام قد بدأ ينتشر فى ربوع الجزيرة ودخل الناس أفواجًا فى الدين الجديد الذى يوحد القبائل ويآخى بين أعداء الأمس .. ويحرر العبيد ويعلن ألا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .. وكانت الدعوة الجديدة كفيلة أن تأسو جراحات تغلب وبكر . وأن تشفى أرواحها من مرارات الانتقام والثأر .. لأن الله غفور رحيم .. والكل سيقف يومًا بين يدى الرحمن .. ليحاسب على ما فعله فى دنياه من خير ومن شر وآثام ..

وقرر هلال ليله ميلاد المنذر أن يذهب إلى مكه ليقابل رسول الله وليحصل على بركته وينضم إلى صفوفه ويعاهده على نصرة الإسلام ..

وما ان استقر رأيه على هذا حتى جمع ربعمائه فارس من رجاله ، وانطلق إلى مكة ، وكله أمل أن يحظى بلقاء رسول لله ، وأن يحصل على بركته ورضاه ..

وبالفعل طاف برجاله حول البيت . ثم قابل الرسول الذى فرح بانضمام هؤلاء المقاتلين الشجعان ذوى البأس الشديد إلى صفوف المسلمين ، والإسلام يخوض معارك شتى لترسيخ أسس العالم الجديد ..

وأمر الرسول هلالا أن ينزل هو وقبيلته فى وادى العباس لينعم بالاستقرار وليكون بالقرب من مركز الأحداث . وتعهد هلال للرسول أن يبذل المال والرجال فى سبيل نصرة الدين الجديد الذى يوحد العرب ويبشر بالسلام والخير والمساواة والعدل لكل الناس وارتاحت نفس هلال لأن ابنه المنذر كان بشير خير على أحفاد المهلهل أبى ليلى .. وسلالة كليب وجساس، وعلامة فاصلة توقف إلى الأبد ما كن بينهما من غل وقتال .

فمضى يؤمن الوادى لأهله .. ومن حين لآخر كان يخرج مع رجاله المقاتلين لنصرة النبى (ﷺ) فى معارك شتى ضد فلول الكافرين .. ولمواجهة العشائر المعادية للإسلام وللسلام .. صلوا على طه خير الأنام ..

* * *

كان الحادى ذى الصوت العذب يستحث جمال موكب السيدة «فاطمة الزهراء» ابنة رسول الله (ﷺ) فى طريق العودة من زيارة بعض أقاربهم بالقرب من المدينة .. وكان المساء رقيق النسمات والشمس تميل نحو الغرب فتصنع أشعتها الذهبية مع بضع سحابات متناثرة منظراً رائعاً يوحى بالسكينة والهدوء .. ومضت السيدة فاطمة تتأمل قدرة الخالق ...

وهى تهمس : «قادر على كل شئ . سبحانه الخلاق العظيم» .

وفجأة .. انقلب كل شئ وتحول .. واندفع إلى السهل المنبسط ، المئات من المقاتلين تطارد بعضهم بعضاً ..

هاجت الإبل التى كانت هادئة ..

وصرخ الحادى والمرافقون محاولين الابتعاد عن الساحة التى تحولت إلى ميدان حرب حاصرتهم فيها خيول تصهل .. ورجال فوقها يصرخون ويتقاتلون ..

وأطلت السيدة فاطمة .. فراعها تشتت رهطها .. واندفاع الناقة التى تحمل هودجها فزعة نحو الجبل فى هياج .. فارة من المعركة لتخوض فى أحراش شائكه وصخور حادة .. وهى ترغى رعباً .

صرخت السيدة فاطمة تستنجد بحراسها ، ولكنهم كانوا قد تشتتوا وتفرقوا، فدعت الله أن يحميها، ووجدت نفسها تدعو على من تسببوا فى تشتت قافلتها بالشتات فى الأرض، وعلى من مزقوا هدوء المساء وسلامه بمرارة التفرق والتمزق تحت صلصلة السيوف والرماح !!

وبعد فترة هدأت الناقة حين هدأ القتال واستبعدت عن ساحة المعركة .. ثم وصل الحادى الهارب والحارس إليها ، بعد أن استطاعوا جمع شتات القافلة الصغيرة .. ليعودوا بها إلى المدينة عن طريق آخر .

وحين وصلت حكت لأبيها (ﷺ) ما جرى فلامها رسول الله وعاتبها ، وأخبرها أن بنى هلال لا يستحقون لعنتها بل إنهم يحتاجون لدعائها فقد كانوا يقاتلون بعض أعداء الإسلام الذين كانوا يتربصون بها وهى فى طريقها إلى المدينة .

قال الراوى ..

عندما أخبرت السيدة فاطمة والدها (ﷺ) بما جرى لها .. إفتر ثغره عن ابتسامة عريضه وربت عليها فى حنان وهو يحمد الله على سلامتها .. ونجاتها من ذلك الكرب الشديد وعودتها ..

لكنه أخبرها أن هؤلاء الذين لعنتهم ، كانوا بنى هلال الشجعان يتصدون لجماعة من يهود خيبر .

تعودوا أن يقطعوا الطريق على قوافل المسلمين المتجهة إلى المدينة أو الخارجة منها ..

وكانوا يتربصون بقافلتها . ولكن العيون والأرصاد التى بثها هلال بن عامر أخبرته بما ينوى فعله اليهود الخيبريون ..

فأرسل فرسانه ليفاجئوهم ويؤدبوهم على ما كانوا ينتوون ..

ندمت فاطمة لكن النبى تبسم وقال أن الأمر استغرق وقتًا أطول مما قدروا ، ولذلك لم ينتهوا من المعركة قبل وصولك آخر النهار .. حتى لا يسيئوا إليك ويضطر هجينك للفرار .

وهنا قالت فاطمة وهى آسفه :

- وهكذا يقدر الناس وتضحك الأقدار ..

وحزنت لأنها دعت عليهم بالهزيمة والشتات وهم الذين كانوا يؤمنون طريق عودتها .

هنا مسح الرسول دمعتها وقال : ادعي لهم بالنصر لعل الله يستجيب لك فيخفف من أثر لعنتك الأولى عليهم .

ساعتها بكت فاطمة بكاءً شديداً لأنها لم تكن تقصد أن ترد جميل بني هلال النبيل بلعنتهم . وأخذت تصلي وتدعو الله أن يعفيهم ويكفيهم شر الهزائم وينصرهم على أعدائهم ..

وعاد الرسول يبتسم وهو يطمئن ابنته الغالية مبشراً أن الله لابد سيستجيب لها .. ولدعوتها الطيبة ..

ليخفف عن بني هلال وعشائرهم ما كتب عليهم في لوح أقدارهم ومصائرهم. وعليهم أن يجاهدوا ما بأنفسهم من ضعف وشرور . وإن ينتصروا للخير فيحظوا بالراحة والسرور . والشر بيّن والخير بيّن وكلٌ مسطور في غيب علم الله وهم خلقوا للمجاهدة والمجالدة والمعاناة ..

والله يسبب الأسباب لتكون في حياة هلال وسلالته عبرة لمن يريد أن يعتبر ، من ذوي الألباب .

وما أمر به الله سيكون ، بحق الكاف والنون .. والقلم وما يسطرون ....

* * *

بداية سكة الغربة

مضت الأيام بهلال بن عامر وعشيرته في رحــاب الدعوة الجديدة رخية هنية .. فما كانوا يخرجون لقتال إلا لنصرة الرسول والدعوه للدين الجديد الذى آخى بين العرب .. ووحد قبائلهم .. ووضع شريعة جديدة تقوم على التسامح والمساواة .. فكل الناس عبيد لله وحده ..

ولا ملك إلا لرب العالمين ومـا الأرض والإبل والماء إلا وديعة أعطاها الله ، رهينة بحسن إدارتها ليعم خيرها على الجميع .. واستقر الأمر لهلال وعشيرته فى وادى العباس الذى سمح الرسول عليه السلام لهم بالاستقرار فيه ..

وسمع كثير من العربان بكرمه وشهامته وحسن عشرته فلجأوا إلى حماه وهو الكريم الذى كان فى حماية رسول الله ..

ولكن الأيام لا تمضى كما يتمنى البشر أو كما يرغبون إذ للقدر تصاريف تقلب المصائر وتكشف السرائر ..

فلله فى خلقة شئون ، كما يقولون ..

لقد توفى رسول الله .. وعادت الجاهلية الأولى تطل برأسها ..

واختلف الأنصار والمهاجرون واشتد الخلاف .. وكاد الأمر أن يفلت ليعود المشركون .. لولا حكمة صحاب رسول الله وتحكيمهم للعقل ، فقضوا على الفتنة فى مهدها .. وجيَّش أبو بكر الجيوش لردع المرتدين وبينهم مسليمة الكذاب فى شرق الجزيرة .. وكان قد ادعى النبوة والتف حوله الكثيرون من الذين قضى الإسلام على تحكمهم .. وساوى بينهم وبين من كانوا عبيداً دعى لتحريرهم من العبودية .. وصار

عمل الإنسان هو نسبه .. ولا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى .. كذلك خرج على الإسلام الذين ارتبطت مصالحهم بالدين القديم ..

وأبلى هلال بن عامر وعشيرته بلاء حسنا فى نصرة الإسلام .. وظل يقاتل حتى أخمدت الفتنة ..

ولكن الحرب مريرة وتترك فى القلوب جراحاً لا تندمل ..

لقد أطلت الثعابين القديمة برؤوسها ونفثت سمها فى قلوب مازالت خضراء لم تتخلص بعد من بذور الفتن القديمة .. ولا نزعت ثوب القبلية البالى كله بعد . وعاد للمنتصرين إحساس بالتميز ؛ عادت تصرخ فى العروق التى لم تتطهر جيداً من رجس الشرك جراثيم القبلية والجاهلية الأولى . ولله الأمر من قبل ومن بعد ..

قال الراوى ..

كان المنذر بين هلال بن عامر وولده الوحيد فارساً شجاعًا حلو الشمائل ذاع صيته فى البادية والحضر .. وفاق أقرانه فى استخدام السلاح .. وفنون القتال كراً وفراً ..

وكانت له جماعة من أصحابه يشاركونه مغامراته ونزواته ويزينون له حماقاته .. ولأنه الابن الوحيد لأبيه .. فقد كان له كل ما يبغيه .. ولذا صار بين الأولاد شديد العناد ..

وذات يوم كان عائداً من رحلة صيد وقنص وطراد .. تمتع فيها وأصحابه بمطاردة الفرائس بين الجبال والوهاد .. إذا رأى فتاة ذات حسن وجمال .. تسير وسط رهط من صاحباتها ذوات الدلال ..

فأحس أن سهام عيونها قد رشقت فى ود وحنان قلبه ..

فسأل صحبه .. فقالوا له أنها ابنة « قاهر الرجال »، وأنها كبنات عشيرتها تميس بالحسن والدلال ..

وإن كانت أجملهن على الأطلاق .. فعاد مهموماً تعصر قلبه الأشواق .. حتى دخل قصره وقد فقد حذره .. وطلب من والده أن يزوجها له على الفور ..

لكن والده عندما عرف من هى استشاط غضبًا .. ونفر فى وجهه عرق الجهالة القديم وقال غاضبًا ..

- أتريد وأنت ولدى الوحيد ، أن تتزوج امرأة من سلالة العبيد ..

ونسى هلال فى غمرة الجواب والسؤال .. مايعنيه هذا الكلام .. ونسى أيضًا ما علمه إياه الإسلام .. ولم يذكر سوى أنها من سلالة جساس بن مرة الكلبى قاتل كليب التغلبى ..

دهش الفتى الذى تربى على العقيدة الجديدة ، من حديث والده عن الثارات التليدة ..

هاهى المأساة القديمة تطل برأسها كالأفعى .. وعاد التباهى بالنسب والحسب بخنجر الجاهلية يطعن مبادئ المساواة فى مقتل .. وكأنه كان شبحًا غارقًا فى النوم إلى حين مؤجل ..

صرخ متكدراً من قول أبيه :

- لا .. لا تقلها ..

وانزع من النفس الأبيه يا أبى وهم القبيلة ..

ليس لى فى الحب حيلة ..

اشتد غضب هلال بن عامر وأسودت الدنيا فى عينيه ، فابنه الوحيد لا يستمع إليه .. ويريد أن يتزوج فتاة من الأوباش .. ونسى أن الإسلام قد ساوى بين البيض والأحباش .. لكنها الجاهلية القديمة .. أفقدته الرؤية السليمة . وأسلمته للمشاعر السقيمة .. فسب ابنه وصب عليه اللعنات .. وطرده شر طردة إلى الفلوات .. وكأنما لا تربطه به أعز وأنبل الصلات . وكاد فى غضبته أن ينسى إسلامه ويستعين بالعزى واللات .. كفاكم الله شر الغضب الجهول .. عندما يعمى القلوب ويلغى العقول ...

غضب المنذر وخرج من وادى العباسى .. وهو لا يصدق ما سمعته أذناه .. ورأته عيناه .. فها هو أبوه يأبى أن يزوجه حبيبته ، لأنها من سلالة كلبية وهو من أرومة تغلبية .. ها هى الجاهلية تعود لتفرق بينه وبين أحبائه .. وهو لن يخضع لها .. وسيخرج عليهم جميعًا لينتقم من المنافقين الذين يبطنون خلاف ما يظهرون ويقولون ما لا يفعلون ..

* * *

اجتمعت حول المنذر جماعة من أصدقاء صباه وشبابه ، أولئك الذين شاركوه نعمة بنوته لهلال بن عامر وصاحبوه فى أيام عز أبيه .. لكنهم كانوا يحبونه هو ، ويعجبون به لفروسيته، ويحفظون له أنه كان لهم صديقًا ورفيقًا أكثر منه قائدًا .. فتبعوه .. وغضبوا لغضبته .. وأصبحوا جماعته وعصابته ..

قطعوا معه طريق القوافل .. وأغاروا على القبائل .. حتى ارتفع صراخ الاحتجاج عليه هنا وهناك .. خاصة بعد أن اشتهر والتحق به كل من له ثأر عند قبيلة .. أو من له مطلب حرمه منه شيخ كهلال .. أو من يرغب فى أن يجد قوت المرأة والعيال .. وسدت فى وجهه دروب الرزق الحلال ..

ولم يجد المعتدى عليهم من رجال القبائل وأصحاب القوافل إلا أن يتفقوا على الذهاب لهلال بن عامر يستنجدون به ليوقف ابنه عند حده .. ويحميهم من عدوانه .

* * *

استقبلهم هلال واستمهلهم حتى يعرض الأمر على رجاله .. ووعدهم أن يرد عليهم حتى ولو عوضهم عن خسائرهم من أمواله ..

أخذ هلال بن عامر يفكر وهو جالس وحده فى شرفه قصره ، فيما وصلت إليه الأمور .. وأخيراً أملى رسالة على كاتبه إلى ابنه ، قال له فيها :

« يابنى لقد زدت على الأوجاع .. فلماذا تزيد من سود الأوضاع .. كانت سيرتنا بالخير على كل لسان .. فرسان شجعان ينصرون المظلوم ويقيمون العدل أينما يحلون .. لم يكن النهب والسلب من شيمنا نحن الذين نصرنا الرسول ..

فارجع عما تفعل واعقل .. واعمل حساب يوم للحساب مهول لا يؤجل» ..

وبعد أن طوى الكتاب أعطاه لنجاب اسمه بلال وطلب منه أن يعود بالجواب فى الحال .. لكن عبده بلال لما وصل إلى حيث المنذر ، وجده مع جماعته يشربون ويصخبون فتقدم إليه وعرض الرسالة عليه ، ولكن المنذر لم يمهله لحظة حتى ليقرأها ، بل اختطف الرسالة ومزقها . وكاد أن يقتله ، لولا أن منعه عنه أصحابه .. على الأقل لكى يحمل إلى هلال ما يحويه جوابه ..

وحينما عاد العبد إلى هلال بجواب ابنه .. ازداد غضبه ، لأنه كان يتمنى أن يعود إليه ولده .. فلما وجده مازال على حاله .. حز فى قلبه مقاله ..

وطلب شورى عشيرته .. فنصحوه ألا يخرج لقتال فلذة كبدته .. وأن يترك المعتدى عليهم من رجال القبائل والقوافل يستعيدون ما أخذ منهم بالقوة .. فهم كثرة وابنه وجماعته قله ..

وبالفعل اعتذر بعدم قدرته على مقاتلة فلذة كبدته .. وكتم ما فى نفسه وهو كظيم .. لأنه ترك أعداء ابنه يفعلون به ما يستطيعون .

* * *

قال الراوى ..

إجتمع على قتال المنذر خمسة ألاف من رجال القبائل وعبيد أصحاب القوافل .. وحاصروا المنذر في الوادى الذى فيه يقيم . وفاجأوه بالغارة من كل ناحية كالصاعقة . ودحرجوا على معسكره كتلاً من النار الحارقه .. فكانت المفاجأة كاملة شامله .. لم يستطيع المنذر ورجاله إلا أن يولوا الأدبار .. خوفًا من الدمار .

بينما حرر المنتصرون المأسورين من أهلهم .. وجمعوا ما سرق من أموالهم . وعادوا سالمين غانمين وتشتت رجال المنذر وفروا هاربين .. مخلفين ورائهم الكثيرين ، ما بين أسرى وجرحى ومقتولين ..

وأصر كبيرهم أن يرسل إلى هلال بعض القتلى والأسرى .. ليكونوا أمام بقية الخلق عبره ..

وحكى بعضهم لهلال ما جرى وما آل إليه حال ابنه الوحيد .. فبكى هلال وأقر بذنبه وأرسل وزيره ليعود بابنه الشريد ..

ولكن الوزير وصل متأخراً .. إذ كان المنذر قد شد الرحال إلى الشام والعراق مهاجراً ..

فأرسل وراءه من يتقصى أخباره .. ويعرف إلى أين كان مساره .. فعاد إلى هلال بما حصل عليه من أخبار .. فظل يبكى ابنه الوحيد الغريب ليل ونهار ...

* * *

ندم هلال ندماً شديداً .. لأنه كان إلى هذه الدرجة عنيداً .. خاصة وقد اعترف أنه جانبه الصواب .. وجر على نفسه وابنه الخراب ، حين خضع واستمع إلى نداء الجاهليه الأولى ..

ورفض أن يزوجه من الفتاة الكلبيه بحجة أنها من سلالة الأوباش ..

وأخذ يصلى ويدعوا الله أن يتوب عليه .. وأن يجنب أولاده المصير الذى ساق إليه ابنه الوحيد ، الذى هو بالتأكيد مثله عنيد ..

فكتب بيده على نفسه وعلى أهله الغربة والتشريد ..

* * *

هذبا تخطب عذبا

لم تكن المرة الأولى التى تراه يتسلل من جوارها ليقضى ساعات الليل ساهراً قلقاً يتأمل نجوم السماء .. ويرسل النظر عبر الصحراء مهموماً ..

لم تحاول أبداً أن تقطع عليه خلوته .. أو تسأله عن سر حزنه العميق .. لأنها كانت تعرف السبب ..

لقد مضت خمس سنوات كاملة من تزوجته وسط فرحة الأهل فى احتفال يليق بـ هذبا ابنة الأمير مهذب حاكم بلاد الشيخ العامرة .

خمس سنوات كاملة ولم تنجب له ولداً ...

كانت تراه يداعب ويلاعب أطفال القبيلة فتحرق الحسرة قلبها ، لأنها لم تستطع أن تنجب للمنذر ابنا يليق بكل هذا الحب للأطفال الذى يملأ قلبه .. ويكاد يفيض دموعاً من عينيه أمام كل طفل أو طفلة يراها .. كانت الحسرة تحرق قلبها .. فتسيل دموعها فى صمت وهى لا تعرف كيف تستعيد حبه الهارب أو الذى يكاد أن يفر ، كطير يتخبط بين جدران قفصه ...

قال الراوى ..

منذ عاد وزير هلال بن عامر إليه دون أن يعثر على ولده المنذر وأخبره بهجرته من الشام إلى العراق ، وهو فى غم وهم شديد . فقد أضاع ابنه الوحيد ، وأحس بأنه لن يلقاه بعد الآن ..

وأحس أن الله الواحد الديّان .. يعاقبه على ما ارتكبه حياله من ذنب ، وما جلبه عليه من الأحزان . عندما نسى أهم ما علمه إياه الإسلام .. أن لا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى والإيمان .. ورفض أن يزوجه ممن هواها القلب .. وطرده ليهيم فى الدنيا ويعانى الغربة والكرب .. لأنها ليست فى مقامه .. ولا تصلح إلا أن تكون من عبيده وخدامه .. فهى من نسل جساس القاتل ومن عشيرة البكريين ، وأين هؤلاء من أرومة التغلبيين .. سلالة المهلل العنيد .. وكليب الشهيد .

صرخ هلال فى الليل صرخة تزلزل الجبال ..

وتوقظ من النوم الرجال .. فزعين لما أصاب سيدهم من حسرة .. وضعف لا يليق ببنى مرة .. لكن الحزن فى قلب هلال كان ثقيلاً كصخور الجبال .. فقد سلك من ابنه سلوك الجاهلية .. عندما رفض أن يزوجه من الفتاة البكرية .. ناسيًا ما استقر بقلبه منذ رأى رسول الله .. من سماحة الإسلام الذى لا يحط من كرامة الإنسان .. بسبب الأديان أو الأجناس أو الألوان ..

هذا ما كانت عليه حال هلال بن عامر ..

فماذا كان من أمر ابنه المنذر المطرود المهاجر ..

صلى على رسول الله المنزه عن الكبائر والصغائر .

* * *

وصل المنذر ومن بقى معه من أصحابه إلى تخوم بغداد وسأل عن ملك كريم وأمير عظيم يلجأ إليه ويحتمى به . فدلوه على الأمير حاكم بلاد الشيخ . وهو الأمير مهذب الذى كان يحكم على مائة وثمانين ألف بطل .. ويملك الأرض الخصبة ما بين النهر والجبل ..

وكانت للأمير مهذب عيون وأرصاد .. تراقب حدود البلاد .. فوصله لجوء المنذر بن هلال إليه وقدومه مع صحبه عليه .. فركب فى عشرين ألف من رجاله ..

ليكون في استقباله .. فقد كان يعرف مقامه وشجاعته .. وما فعلته به الأيام وما بدلت من أحواله ..

وما أن أقبل المنذر عليه حتى نزل عن حصانه وسلم عليه .. وأكرمه غاية الأكرام . وأظهر له الترحيب والاحترام وعاد به إلي بلاده ومستقر حكمه وهو يحس أن الله سيحقق به حلمه .. إذ لم يكن له ولد .. وكان هذا الأمر يقلقه ويسبب له في شيبته بعض الهم والكمد .. وها هي الأقدار تسوق إليه بطلاً من الأبطال .. وأي بطل ؟ ! . فراح عنه الهم وملأ قلبه الأمل .. أن يتحقق حلمه قبل أن يوافيه الأجل !.

الآن يمكن أن يطمئن على ابنته التي فتن بجمالها الكثيرين .. ولكنها رفضتهم أجمعين . فزرعت بينهم فتنة لا ينطفئ لها لهيب . ووضعته في موقف عجيب .. لذا كان يتمنى أن يزوجها من غريب .. حتى لا يقال أنه فضل رجلاً منهم على بقية الرجال .. ومن في الدنيا يحل له هذا الإشكال .. أفضل من المنذر بن هلال ...

صلوا على طه أعظم الأبطال ..

* * *

تذكرت هذا كل ذلك وهي تراقب زوجها الحبيب الحزين .. مرت الأيام الحلوة أمامها بكل تفاصيلها وجمالها .. منذ رأت المنذر أول مرة وهي مع صاحباتها وسط المرج المزهر بالقرب من الجبل .. قبل أن يلتقي مع أبيها يوم وصوله .. وكيف رأت في خصاله وفعاله ما أوقع بقلبها حبه ..

كانت قد شردت عن صاحباتها وابتعدت وفقدت طريق العودة .. وامتلأ قلبها رعباً حين لاح لها فجأة ذلك الضبع الكريه الذي كاد يفتك بها .. لولا ذلك الفارس الذي عاجله بضربة من سيفه أردته قتيلاً على بعد خطوات منها .. وكيف حملها فاقدة الوعي إلى صاحباتها .. وهو لا يعرف من هي ولا أنها أفاقت بين ذراعيه القويتين وظلت تتظاهر بالإغماء لتشبع عينيها بما يشع به وجهه من رجولة وبهاء ..

ابتسمت حين تذكرت كيف سلمها لصاحباتها فى خجـل واختفى على عجل .. فلم تعرف اسمه وهو الذى ملأ عليها الدنيا وملك قلبها حسنه وخلقه ورسمه .

وحين فوجئت به يجلس مكرمًا معززًا إلى جوار أبيها ، ظنته لأول وهلة ممن جاءوا لطلب يدها .. ففرحت ورقص قلبها .. لولا أنها رأت والدها يضحك فى سعادة على غير العادة ، عندما يكون فى الأمر خطبة لها ، فانقبض قلبها .. فالأمر بالتأكيد على غير ما دار بخلدها .. لأن طالبى يدها وهم كثيرون لم يجلبوا لأبيها سوى الغم والحزن ، لأنهم يزيدون من عدد الذين يرفضون ، وعليه وعليها يحقدون . كادت تصيح من مكانها خلف الستائر : « إنى موافقة يا أبى » ولكنها .. كانت تملك من الأدب ما يمنعها من التصريح بحبها .. فأسرَّت ما بقلبها ، وأغلقت مفاتيح صدرها .. على سرها ...

عادت الابتسامة تلوح على وجهها .. حين تذكرت كيف تقدم هو بعد تردد وكتمان لطلب يدها .. كان غير واثق وهو الغريب المهاجر أن يقبل والدها زواجها منه .. صحيح أنه قرَّبه إليه حتى صار كوزيره وأحبه كأنه ابنه .. ولكن بعد أن وصلته أخبار رفضها لهذا العدد من الفرسان والرجال .. يئس وتأكد أن زواجه منها هو بعينه المحال .

وكادت تقهقه عندما تذكرت والدها وهو يقفز كالأرنب ، وهى عادة تغلب عليه حين تغلبه الفرحة .. ساعة حدثته زوجته .. عما أسرت به إليها ابنته ..

– لِمَ .. لَمْ تحدثينى بهذا من قبل ؟

– لَمْ يكن من حقى أن أكشف لك سرها .. ونحن لا نعرف ما نعرفه الآن ...

– أو لست أبيها .. وكان من حقى أن أعرف ما يدور فى بيتى ؟

– دعك من هذا ! .. لم أكن أجرؤ .. ولم تكن هى لتسمح لى إلا بعد أن تتأكد أنه يريدها كما تريده ..

شجعتها المشاعر التى اجتاحتها أن تخترق حاجز الصمت الذى أحاط المنذر نفسه به وسط سكون الليل .. فاقتربت خفيفة كالطيف منه .. ووضعت كفها الرقيق على كتفه فى حنان الأم أكثر من شوق الزوجة ..

فالتفت ناحيتها وقد غمرت وجهه ابتسامة مغتصبة .. لم يفت عليها أنه بذل جهداً خارقًا ليجعلها ابتسامة حقيقية ....

– ماذا بك .. يامنذر ؟ ....

– لا شيء يا حبيبة القلب ..

– أنا هذبا يا منذر . أنا التي تقرأ صفحة وجهك بل وثنايا داخلك كالكتاب .. بح لي بما يهمك .. ويقلقك ..

– هل تظنين أن قلب رجل يجد نفسه فجأة في موقع الأمير مهذب ويحكم هذه الأرض باسمه يمكن أن يخلو قلبه من قلق .. بعض المشاكل تطارد الإنسان حتى إلى فراشه ..

– منذر .. لا تخفى ألمك فأنا أعرف سره ...

اختلجت عينا المنذر فزعًا أن تكون عرفت بالفعل سر حزنه أو خمّنته فاستدار إليها وأخذها بين أحضانه فى حنان وهمس فى أذنها ..

– لا تشغلى بالك بأمور .. لا تخصك ..

– لا .. إنها أشد الأمور التى تخصنى .. أنا أعرف مقدار ما يسببه لك من ألم أننى لم أنجب لك الطفل الذى تريده ..

حاول أن يعترض ولكنها أسرعت ووضعت إصبعها المضىء على فمه طالبة ألا يقاطعها ..

– أتظن أننى بلهاء .. أو أننى على هذا القدر من الغباء الذى لا يجعلنى أشعر بما يدور في داخلك .. عندما تداعب أطفال الآخرين .. أو ذلك الحنان والحنين الذى يفيض حولك حين تحمل طفلاً أو تطعم طفلة أى طفلة ..

صمت المنذر فلم يجد كلمات ليرد على هذه المرأة الذكية التى يحبها كما لم يحب أحداً فى الوجود .. والذى يكتم فى قلبه شوقه القاتل لطفل من صلبه خشية أن يجرح مشاعرها . لكنها واصلت كلامها وهى تتظاهر بالمرح ..

– أنا بنفسى التى ستزوجك من امرأة أخرى .. تنجب لك الطفل الذى تريد، بل لقد اخترتها بالفعل من سلالة منجبة ، حتى تحقق أملك ولا تخيبه ..

لم تعطه الفرصة لكى يعترض .. فهى تعرف أن اقتراحها قد وافق رغبته وهواه .. فأرادت هى (بيدها لا بيد القدر) أن تختار بنفسها من تحقق له مناه .. رغم كل النار التى تتأجج فى داخلها .. واليأس والخوف الذى يعصر قلبها ويشعل نيران الخوف من فقده بين ضلوعها ..

قال الراوى ..

بعد أن زوج الأمير مهذب ابنته هذبا من ضيفه وحبيب قلبه المنذر وارتاح من هم الفرسان المرفوضين ، الذين شفوا من ألمهم وحزنهم الدفين ، بعد أن صارت لرجل يحبونه أجمعين ..

أقام لهذا الليالى الطوال الملاح التى قضاها الجميع فى سرور وانشراح .. انزاح عن قلبه الهم الوحيد الذى كان ينغص عليه حياته ويحرمه من فرحته أن يقفز كالأرنب فى مرح بسبب الهم والقلق الذى كان يعصر قلبه كلما لاحظ نظرات الغضب والغيرة التى يتراشق بها الفرسان العرسان المرفوضين .

الآن صارت هذبا زوجة للمنذر ولا سبيل إليها ، فارتضى الجميع حكم القدر .. الذى دبره لمهذب كى يجعل الأمر عليهم جليلاً .. والطمع فيها مستحيلاً ..

بعد ذلك أعلن أنه يجعل من صهره المنذر حاكماً مكانه وأميراً يعلو بهم شأنه فهل من معترض .. أو طامع ؟

كان الجميع قد أحبوا المنذر فبايعوه ، حتى أولئك الذين كانت لديهم بعض المطامع ، لم يجدوا بداً من أن يؤيدوه ..

وألبس المهذب الأمير المنذر لباس الإمارة وألبسه الخاتم وسلمه الإشارة وطلب منه أن يقسم ويعاهده أمام الجميع أن يحكم بالعدل والإنصاف .. وألا يبيت فى أرضه كما كان فى عهده جائع أو خواف ...

وجلس المنذر على كرسى الإمارة وأظهر الكثير من المهارة والجسارة .. فأكرم العربان والرعيان وزارعى البساتين ، وحكم بما يمليه عليه العقل والدين .. فانقاد له العباد وأمنت البلاد ..

لكن حنينه للولد كان ينغص فرحته .. وينقص من راحته ، حتى كانت تلك الليلة التى كاشفته فيها زوجته بأنها تعرف سر حزنه .. وشوقه لابنه .. وأنها عاهدت نفسها أن تزوجه بمن تهبه الولد بأمر الله .. لأنها لم تعد تحتمل أن تراه يتعذب ، وهى ابنة المهذب الذى لم يكن يحب الحزن ولا القلق .. ويتمنى أن يظل طول الوقت يقفز فرحًا كالأرنب من مرح ونزق ..

أدعو الله وصلوا على خير من خلق ..

* * *

ذهبت هذبا متنكرة فى زى ملك من ملوك الشام .. قاصدة بلاد السرو ، واستقبلها الملك الصالح ملك بلاد السرو بكل إجلال واحترام .. وأقام الولائم التى تليق بما عُرف عنه من كرم . ولما انتهى الطعام . ودار بينهما الحديث والسمر والكلام .. أعجب الملك الصالح بذلك الملك الجميل الشديد الذكاء والفصاحة ..

ولذا لما وجد الملك المتنكر الفرصة فاتح الملك الصالح وطلب منه يد ابنته ..

ورد عليه الملك الصالح أن الأمر يحتاج لمعرفة رأيها .. وأخذ موافقتها .. لكن هذبا المتنكرة .. أصرت على أن تحصل على موافقته أولاً .. لأنها بعد ذلك سوف ستحصل على موافقة عذبا ، وهى متأكدة من موافقتها ..

ازدادت دهشة الملك الصالح ..

واضطر أن يقول أنه موافق .. ولا يجد مانعًا ..

فقالت هذبا وهى تنزع ثياب تنكرها وتكشف عن شخصيتها :

– الآن اطمأن قلبى .. لكنى سأقوم الآن لأقنع عذبا .. فنحن النسوة نفهم بعضنا جيداً ...

لم ينطق الملك الصالح بكلمة، وازدادت دهشته فلم يستطع أن يعبر عما أحس به من هول .. خاصة وقد استطردت هذبا مبتسمة :

– لست أنا الذى يطلب يدها طبعًا يا سيدى .. إنما أنا أريدها زوجة لزوجى .. فهل تعطيني الفرصة أيها الملك الصالح ..

ظل الملك الصالح مندهشًا ذاهلاً . لا يستطيع النطق بكلمة .. فقد كان الأمر غريبًا وعجيبًا .

أمرأة تسعى لتزويج زوجها ..

– إن هذه غاية العجب .. ولم تسمع من قبل به العرب ...

لكنها عندما شرحت له الأمر أكبره وأكبرها .. ودعى ابنته وأحضرها .. ولم تفهم عذبا تمامًا وكادت أن ترفض لولا أنها أحست بصدق نوايا هذبا .. وقوة إقناعها .. فكتمت الخوف الخفى في قلبها .. فما من امرأة ترضى أن يشاركها أحد فى رجلها .. فما بالك والمنذر كان لها بطلها وحبيب قلبها .....

لكن الفتاة الرقيقة لم تستطع إلا أن تصدق أن هذبا تقول الحقيقة ...

والحقيقة أن عذبا كانت قد سمعت بالمنذر وحكاياته ، وأعجبتها بل وملكت قلبها مغامراته .. لذا أزاحت قلقها جانبًا .. ووافقت على أن تصبح زوجة لزوج هذبا .. وأن تشاركها فيه المحبة .. بعد أن أقنعتها بل وفتنتها .. إذ جاءت بنفسها وطلبتها .. وفى موكب عظيم اصحبتها .. لتكون زوجة لزوجها . عسى أن تحقق له الحلم الموعود .. وتأتى له بالمولود ..

وزفت عذبا للمنذر .. كما هو مكتوب ومقدر .

* * *

وعندما هم الملك الصالح بتوديع ابنته ، بعد أن تركها أمانة بين يدى المنذر وزوجته ، وجدت نفسها وقد غلبها قلق خفى .. وخوف لا تدرى مصدره .. تهمس لأبيها بصوت لم تخفى عليه رعشته :

- أبى .. أرجوك أن تزورنى بين وقت وآخر .. فمهما كانت فروسية زوجى وطيبة قلب زوجة زوجى .. فإنها ستكون لى ضرةُ ! ، وأنا أخشى الخفىّ فى قلبها ، مهما أظهرت لى من المحبة والمسرة .

* * *

بين جابر وجبير

قال الراوى ..

أخيراً يا سادة يا كرام تحققت الأحلام .. والمنذر الذى كان يحلم بابن واحد .. رزقه الله بولدين ..

فالله يفعل ما يشاء حين يشاء .. والمقدر والمكتوب على الجبين .. لابد أن تراه العين .. وما لابد أن يكون يكون .. لأن لله فى خلقه شئون .. وكم للأحداث من شجون ..

فهلال الذى طرد المنذر من ظلال رحمته .. لأنه أراد أن يتزوج امرأة من قبيلة ليست فى مكانة قبيلته وليست لها أصل مثل أرومته .. امرأة من البكريين رعاة الأبل والأغنام بينما هو سليل التغلبيين المحاربين ذوى المكانة والمقام .. لقنته الأيام درساً لأنه نسى ما أوصى به الإسلام وما أقره من مساواة بين خلق الله من الأنام .. وحرمه الله من أعز أولاده ، فلم يشهد يوم ميلاد أحفاده ..

بينما عوّض الله المنذر عن أيام غربته وأوقع فى قلب هذبا محبته ، ثم حرمها من الولد ليكتمل الدرس من حكمته .. التى تعجز عنها الأفهام .. ليأتى اليوم فنعرف مما حدث .. عبرة الأيام .. خاصة عندما لا يستوعب الأبناء أخطاء الآباء ..

صلوا على من كان خير الأبناء وأكرم الآباء ..

لقد اختارت هذبا لزوجها زوجة هى عذبا ، بنت الملك الصالح لتنجب له ما يشتاق إليه من ولد .. وتزيل عن قلبه ما هو فيه من كمد ، وأحضرتها بنفسها إلى البلد .. وعطفت عليها وتقربت إليها .. وعاملتها برقة لتشعرها بالأمان وأخفت ما بقلبها من أحزان .. وهيأت لها الفرصة، وكل أملها أن يتحقق أمل زوجها وحبيبها فى الخلفة

التي حرمت منها، وغمرتها بالحب والألفة ، على عكس ما تفعله النسوان .. وأبعدت كل منغص عنها .. وقد زاد هذا من محبة المنذر لها .. وزادت عنده مكانتها .. وكلما كانت محبتها في قلبه تزيد .. كان حبه في قلبها يتجدد من جديد .. فكان ما أرادته حكمة الرحمن .. وهي أن يفهم الإنسان أنه يريد وغيره يريد .. ولكن الله في النهاية يفعل ما يريد ..

وكانت المعجزة ..

فحمَلَت هذبا التي كانت عاقراً محرومة من الإنجاب في نفس الوقت الذي حملت فيه عذبا .. والله وحده يسبب الأسباب ..

ولذا كانت الفرحة فرحتين ..

وبدل الابن يا منذر .. وهبك ولدين .

فربك للمكسورين - كما يقولون - جابر .

تَصون الأمانة وتعي الدرس . وتكون للغرباء في بيتك .. جبير ..

صلوا .. على من كان الكلمة واللسان للأخرس وعيونا للبصير .. نبيّ الله السميع القدير ..

* * *

في نفس الوقت الذي أنجبت فيها عذبا ابنها جبير .. وضعت هذبا ابنًا يضاهيه في الحسن أسماه والده جابر ...

وأقيمت الأفراح والليالي الملاح ووزعوا الأموال وذبحت الذبائح وظلت الولائم للرائح والغادي ، من أهل الحضر والبوادي .. حتى ظهر الهلال التالي لشهر جمادي .

وكانت محبة هذبا قد زادت في قلب المنذر .. لأنها فعلت المستحيل كي تحقق رغبته في ابن يرث إمارته .. وزوّجته من جميلة غيرها على غير ما تفعل النساء .. واحتملت كل ما فجره هذا من آلام وأحزان حين تراه في أحضان غيرها .. بإرادتها وتدبيرها ...

وها هي كما شاءت الأقدار تنجب له هي الأخرى، وفي نفس الوقت، بعد أن طال حرمانها .. وصحيح أنها ندمت لتسرعها هي الأخرى في ما فعلته ولامت نفسها كثيراً على قلة صبرها .. ولكنها والحق يقال صانت عهدها .. وظلت تعامل (عذبا) بكل إعزاز واحترام .. كاتمة ما بقلبها .. باعتبار أنها فعلت ذلك بنفسها ..

أما المنذر .. فصار يلوم نفسه هو الآخر بشدة لأنه أطاعها ، وتزوج بامرأة لا يحبها . والحقيقة أنه لم يشعر يوماً بالحب لعذبا ، مقارنة بما يشعر به من عواطف نحو هذبا ، وانعكس هذا على موقفه من جبير ابن عذبا ، بينما زادت محبته لجابر ابن هذبا .. وكأنه يكفر عن ذنبه حيالها ، ويعوضها عما جرى لها .

* * *

أحضر المنذر لطفليه أفضل المربين .. ولما شبا على الطوق استقدم لهما خيْر المعلمين .. وعندما صارا شابين سلمهما لأشجع المدربين .. فشبا فارسين، لا يشق لهما غبار في العلوم والأدب .. فصيحين في حكاية الحكايات ورواية الأشعار .. رجلين متمرسين بفنون الحرب والقتال .. كانا نموذجين لما يجب أن يكون عليه أحفاد جدهما هلال ..

وحدث أن الملك الصالح والد عذبا عندما وافته المنيّة وأحس باقتراب الأجل .. دعى إليه ابنه مفلح على عجل وأوصاه ألا يكف عن زيارة عذبا وصلة رحمها كلما أتاحت له الظروف ذلك حتى لا تحسّ الغربةَ عن أهلها .. ولا تهُون مكانتها لدى زوجها .. ولذلك قرر مفلح أن يزور أخته فور وفاة والده .. في موكب عظيم تتحدث عنه الركبان ويحفظ كرامتها بين العربان ..

فخرج لزيارة المنذر فيما يزيد عن ألف فارس في عدتهم وكامل عتادهم ومعهم خمسمائة ناقة محملة بالهدايا التي تزخر بها بلادهم ..

وخرج المنذر لاستقبالهم أحسن استقبال ، وإن لم يعجبه تماماً هذا الاستعراض للكرم والقوة .. أما جابر فإنه كان أكثر من والده غيظاً واستعرت فى قلبه غيرة لا حد لها مما فاض على جبير من عواطف خاله وهداياه .. وحرك هذا الغيظ في قلبه ما أخفاه ، والذى لم يكن يخفى على والده وكان مع أخيه يراه ..

وبعد أن بقى مفلح عند صهره مدة من الزمان عاد إلى بلاده .. ولكن الزيارة فجرت ما كان يخفيه المنذر من تفرقة بين أولاده ، فلم يعد يجد حرجًا فى إعلان تفضيله لجابر على جبير ، وانحيازه الصارخ لابن هذبا على ابن عذبا ...

ولم يفاجئ هذا عذبا التى كانت تحسه منذ اللحظة الأولى .. كانت تحس فى عينى المنذر ندمًا خفيًا على زواجه منها .. وما أقسى هذا الشعور على امرأة محبة وغريبة عندما ترى وكأن حبها مفروض على زوجها وهى من وهبته الابن الذى طالما حلم به .. وازداد هذا الشعور عندما حملت هذبا التى زوّجت زوجها بنفسها .. امرأة فى حسنها ونسبها ، فإذا بها تنجب طفلاً مثلها .. ولم يعد المنذر مضطراً لإخفاء مشاعره مراعاة لها ، ولا مجبراً على التظاهر إرضاء لها ..

كانت عذبا فى البداية تلومه .. ثم أصبحت ترجوه، ثم ذهبت لهذبا تشكوه .. وتسر إليها أن المنذر يزرع فى قلب جبير الكراهية لأبيه وأخيه .. ورجتها أن تحدثه فى الأمر وما فيه ..

وملّ المنذر من إلحاحها .. وشكواها إليه تارة وتارة لزوجته .. فامتنع عن زيارتها ولقياها .. حتى ثارت ذات يوم وانفجرت باكية أمام ابنها .. وهى تسأله عما فعلته لأبيه وعما رآه منها ليعاملها هذه المعاملة القاسية ، ويعامله وهو الشريف الحر كأنه ابن لجارية ..

ذهب جبير إلى أبيه غاضباً .. وقد فاض به ما كان فى قلبه من مشاعر ، حيال ما يلاقيه من أخيه جـابر .. الذى يصر على أن يقـابل محبـته بكراهية لا يداريها .. ويرفض وده بقسوة لا يخفيها .. وسأل والده عن السر فى تفرقته فى المعاملة بين أمه وبين عذبا .. ولَمَ يقدم أخاه عليه وهو ابن عذبا، حفيد الملك الصالح وابن أخت الأمير مفلح العظيم .. فرد المنذر عليه وهو كظيم .. بأن عليه وعلى أمه أن يعيشا فى قصرهما مكرمين كبقية الآخرين وإن لم يعجبهما رعايته لهما وما يجدانه من حماية فى ظل مكانته فليعودا إلى حيث يجدون عزاً أكبر .. ومكانة أفضل .. هناك فى مملكة جده وبلاد أبيها .. تحت رعاية خاله المتكبر المغرور أخيها ..

ولما عرفت عذبا بما جرى .. ذهبت إليه غير مصدقة فأعاد عليها حديثه القاسى .. فكتمت دموعها ودفنت حزنها فى قلبها وخرجت مصـرَّة على الرحيل .. ولم يهتم المنذر كثيراً ولم يشفق عليها ولا عُنِى بالاعتذار إليها، ونسى أنه يفعل بالضبط ما فعله معه أبوه هلال .. ! عندما طرده من رعايته ولم يراع بنوته .. ها هو يرتكب نفس الخطأ مع و لده جبير دون أن ينتبه إلى القسوة التى تتم بها فعلته ..

وهما لم يسيئا إليه .. ولابد لهما فيما صارت الأمور عليه ..

* * *

قال الراوى ..

عندما عرفت عذبا بحقيقة ما يشعر به زوجها نحوها .. دعت ابنها جبير إلى الرحيل والخروج إلى بلاد أهلها .. وجمع جبير رجاله وماله وخرج غير نادم على ما كان .. وخرج معه عدد من أصدقائه الفرسان ..

وأرسل المنذر معهم وزيره .. ليصحبهم إلى بلاد الأمير مفلح .. وعندما اقتربوا من بلاد الأمير مرزوق الواقعة بين بلاد السر وبلاد الشيخ طلبت عذبا من الوزير أن يعود

من حيث أتى .. فهي تخشى أن يفهم أخاها مفلح الأمر على غير حقيقته ويظن بها سوءاً ، خاصة وأنه لم ير ما يثير القلق عند زيارته الأخيرة لها وللمنذر .. ووافقها الوزير الذى لم يكن راضياً عن الأمر كله من البداية وعاد أدراجه .

وأمر جبير رجاله بالنزول فى طلل قيم على حدود مملكة مرزوق بعد أن أرسل رسولاً إليه يستأذنه في ذلك ..

وكان الأمير مرزوق قد سمع عن جبير وشجاعته .. وكان يعرف مكانة عذبا لدى أبيها وأخيها .. فخرج بنفسه إليهم فى موكب كبيرحاملاً معه الهدايا والعطايا .. وحين عرف بالحكاية ، أصر على دعوتهم للنزول في أرضه .. وتحت رعايته وحمايته .. وأعطاهم من الأرض والعبيد والجوارى . ما يكفى للاستقرار والحياة الكريمة حسب العرف الجارى ..

وتعمقت الصلة بينه وبين جبير الذى أظهر شجاعة كبيرة وقدم لمرزوق خدمات كثيرة .. فأحبه وقربه إليه .. وسمح له أن يفعل كل ما يعود بالخير عليه .. فصار له اتباع وأعوان وجماعة تزيد على الخمسمائة من الفرسان الشجعان ..

وحدث في يوم من الأيام .. أن حل عليهم ثلاث ضيوف من أهل بلاد الشيخ ومن رجال المنذر فرأوا ما له من مكانة وجاه وما يتمتع به من قوة وسلطان .. فأبلغوا أخاه ..

وغضب المنذر واعتبر ذلك تحدياً له، واستدعى وزيره وسأله عن السبب فى أنه لم يوصل عذبا إلى أرض أخيها . فحكى له الحكاية وأن ذلك هو ما طلبته عذبا .. وقال له هذا أمر لا أهمية له .. خاصة وأنك طلقتها وراحت لحال سبيلها ..

ووجد جابر فى غضب أبيه فرصة كي يطلب منه الإذن للانقضاض على جبير قبل أن يستفحل أمره .. ويزيد شره .. فيعود لينتقم منهم لما فعلوه معه ومع أمه ..

وكان جابر قد صار جباراً . واستغل حب المنذر له فأصبح يأمر وينهى في كثير من الأمور .. حتى دون علم والده .. حتى كادت الامارة أن تكون ملك يده ..

كتب جابر كتاباً إلى مرزوق يهدده .. ويأمره بطرد جبير وأمه .. وعن بلاده يبعده، وإلا حمل عليه وشتت أهله وخرّب أرضه .. وانتقم منه شر انتقام لأنه يأوى عدواً لهم لابد عن طرده .

* * *

كان جبير في إحدى رحلات الصيد وحده .. عندما صادف العبد الذي يحمل الرسالة . فأخذها منه وقرأها .. فتكدر .. لكنه أخفى حقيقة شخصيته عن العبد وكتب رداً إلى جابر أعطاه للعبد وأمره أن يوصله إليه .. وأمره أن يخبره أن سيده الأمير مرزوق قد أطاع الأمر على الفور وأنه طرد جبير وأمه إلى الصحراء ..

لم يكن جبير ليرضى أن يتعرض الأمير مرزوق للأذى على يد جابر وأن تتعرض أرضه للخراب على يد المنذر .. وقرر الرحيل في سلام . واستأذن الأمير مرزوق في الرحيل إلى بلاد السرو حيث خاله .. فقد اشتاقت أمه لأخيها .. ولم يخبره شيئاً عن تهديدات جابر .. حتى لا يرفض رحيله .. إذ كان يعرف أنه لا يخضع لتهديد ، أو يتخلى عن مروءة ..

* * *

ضحك الأمير جابر متشفيًا ودخل على أبيه المنذر منتشيًا بالانتصار على أخيه وأخبره أن جبير وأمه يهيمان الآن في الصحراء .. حسب ما أراد وشاء ..

ولكن المنذر تأثر من ذلك وزاد عليه المرض .. وتذكر ما حدث له عندما طرده أبوه هلال بن عامر ، وما لاقاه من مصاعب ومتاعب .. وداهمه الإحساس بالغربة والشتات وطلب من جابر أن ينسى ما فات .. وأن يرسل لأخيه كي يعود إليهم .. ويكفي ما جره العناد عليهم ..

لكن جابر أقسم أن يشرد جبير في الأرض وكتب رسائل إلى كل الإمارات المجاورة .. يهددهم إن آووا جبير أو استضافوه بالانتقام منهم .. بتخريب بلادهم وتشريد أولادهم .. وأرسل رسالة أشد لهجة إلى الأمير مفلح الذى لابد سيكون أول من يلجأ إليه ابن اخته جبير .. وحين وصلت الرسالة ليد مفلح تعجب من الأمر .. فلم تكن لديه أية فكرة عما جرى . ولم تكن قد وصلته أية أخبار عن أخته وابنها .. منذ أن كان في زيارتها عند المنذر .. وبينما هو في دهشته .. وقد أثر فيه تهديد المنذر ونال من شجاعته .. إذ أتاه من يخبره بقدوم أخته عذبا وابنها جبير .. فخرج إليهم ومعه رسول المنذر ورسالته .. ولما التقاهم أحس جبير بما في كلام خاله من فتور .. وحين قدم له رسالة أخيه .. انكشفت الأمور .

قال مفلح في صوت مهزوم :

– يا ابن أختى . ها أنت ترى أن أباك يهددنا بالقتل والخراب ونحن لا قبل لنا بالمنذر وجيشه .. فإن رأيت أنت في نزولك عندنا خير فأهلاً وسهلاً بك ، على الرحب والسعة ..

فرد عليه جبير بقلب مفعم بالحزن والألم :

– ألف إهانة لنا ولا إهانة لك يا خالى الغالى .. إن لنا رب لن يتخلى عنا .. وسوف أكتب لأبى ألومه على هذه الأعمال .. التى لا أدرى سبباً لها .

* * *

وكتب جبير رسالة إلى أبيه وأخيه .. يلومهما على ما يفعلان .. ويبدى دهشته لكل هذا الحقد الذى يحملان ، وهو لم يفعل سوى أن طلب الإنصاف بين أمه وزوجة أبيه .. والعدل والقسط بينه وبين أخيه .. وطلب منه أن يكف عن هذا العدوان والتهديد للجيران .. وإلا فإنه سوف يعود إليهم يوماً لينتقم منهم ويشتت شملهم .. ولولا أنه ما زال يحبهم .. لرجع إليهم على الفور لتذكيرهم بمغبة وسوء فعلتهم .. ثم أعطى

الخطاب إلى رسول أبيه بعد أن ختمه متعمداً تذكيره برحلة شتاته حين طرده أبوه .. ولامه لأنه يفعل ما فعله هلال فيه ..

وقبل أن تركب عذبا هودجها .. التفتت إلى أخيها قائلة :

- الله سيكون لنا خيراً منك .. وسينصرنا لأننا مظلومين وفيكم ومنكم مغدورين .

والتفتت إلى ابنها تواسيه .. وتخفف عنه فعلة أبيه ، وتدعوه أن يعتز بنفسه ولا يطاطئ رأسه إلا لخالقه وباريه .. وأردفت :

- لعلها يا بني لعنة بني هلال .. فلا تحزن فمن يعاني لعنة الشتات لابد أن يكتب له الله بعد الغربة فرحة الانتصار ..

* * *

كرم الأصل لا يهرب

اشتد المرض على المنذر ولزم الفراش ..

وملك جابر بن هذبا الأمر فجلس على كرسى الإمارة وحكم وتجبر وقهقه ضاحكًا في تشفٍ عندما بلغته الأخبار أن مفلح خاف من تهديداته ورفض أن يأوى جبير وأمه عذبا وطردهم إلى الصحراء ..

أما المنذر بن هلال .. فقد بكى بكاءً شديداً عندما وصله الخبر .. حتى أبكى الحاضرين .. حتى هذبا ، فقد أحست أنها كانت السبب في كل هذا الأمر .. فلو أنها صبرت قليلاً لأنجبت للمنذر الابن الذى يتمناه .. دون أن تخطب له عذبا فتنجب للعذاب ولده جبير ..

قال لها الشيخ يا ابنتى :

– إن المقدر لابد أن يكون .. فلله في خلقه شئون ، ومن كان يدرى أنك لو لم تفعلى ذلك ، لما كان لك نصيب فى جابر .. ولظل المنذر مهموماً لعدم الإنجاب .

فقالت وقد زاد همّها :

– ها هو مهموم مكسور الخاطر بسبب الإنجاب .. يا سيدى .. وأنا السبب ..

هدأ من روعها وقال :

– لست من يكتب أقدار الناس يا بنيتى .. هذه مشيئة الإله .. وحين يريد الله فلا راد لإرادته .. وما صنعه جابر بأخيه .. حدث من المنذر بأمر أبيه .. فاتركى الأمر له وهو القادر على تهوين الأمر عليه ..

ولم يرع جابر خاطر أبيه حين طلب منه أن يرسل إلى جبير طالبًا منه أن يعود ولكن جابر تمادى في غيِّه وصاح ..

– لقد أرسلت وراءه لا ليعود ولكن لأعرف أخباره ، وإلى أين يذهب وفي أى مكان يستقر ، لأطارده حتى آخر الأرض ولآخر الزمان ..

قال الراوى ..

أما ما كان من أمر جبير .. فقد سار مع أمه ومن صحبهما من الفرسان في البر على غير هدى لمدة سبعة أيام .. حتى كاد أن ينفد ما معهم من شراب وطعام .. ثم قال أحد رجاله .. أن في بلادٍ نجد ملك عظيم الشأن .. يقال له ابن حنظل النعمان .. لا يرد عن حوضه إنسان .. وأن من ينزل بأرضه ويلوذ بحمايته ، يعيش سعيداً تحت رايته .. فقال جبير ..

– سيروا بنا إلى نجد .. لعلنا نجد عند أهلها من يصون العهد ..

وكان بينهم وبين نجد مسيرة يومين .. فمالوا إلى وادٍ به عين .. ليصيبوا شيئًا من الراحة في تلك الواحة .. وبعد أن اغتسلوا وأكلوا وشربوا . هلّ عليهم رهط من الفرسان كأنهم من معركة قد هربوا .. ولما سألوهم عن شأنهم ، وما هو سر هرولتهم وفرارهم .. قال كبيرهم « رحال » أنهم من أعيان نجد . وقد هاجمهم عدو اسمه الجليلى بن سالم .. الذى هو على أرض سنبس أمير وحاكم .. فقامت بيننا وبينه حرب وقتال .. انتصر فيها علينا واستولى على مالنا من أنعام ومال .. فهربت أنا والعيال ، ومن بقي من الرجال .. ولا نعرف ما جرى بين الجليلى وبين ابن عمنا النعمان بن حنظل .. وها نحن هنا ولا ندرى ماذا نفعل ..

وهنا قال له جبير ..

– كيف وأنت أمير وابن عم أمير .. تترك ابن عمك تحت وطأة الحصار .. وتهرب من الديار ؟ لو كنت مكانك لبعت روحى مع ابن عمى . الذى كنت في حمايته وكان همه

من همي .. هيا .. وأنا أضع روحي وجماعتي معكم .. وأضع يدى فى يدكم .. وسوف ترى ما يحل بالأعداء من الدمار .. أو تمحو بدمانا ودماكم عنكم العار ..

فأجابه رحال :

– وكم معك من الفرسان والرجال ؟

قال جبير فى ثقة ..

– معى ثلاثمائة فارس لا يشق لهم غبار ..

فاستلقى رحال على قفاه من الضحك وقال :

– لقد كان معى مائة ألف من الفرسان يا خليلى ، ولم يصمدوا أمام قوة الجليلى .. قم يارجل وامض إلى حال سبيلك واطلب النجاة .. فقد يكون الخليلى فى أثرنا .. فيعدمنا ويعدمكم الحياة ..

غضب جبير لهذا القول الجبان .. وقال له :

– اهرب بجلدك أنت يا عرّة الفرسان .. أما أنا فسوف أرحل برجالى ولكن إلى النعمان .. وسترى كيف سيكون النصر حليفى وحليفه ..

وتعجب رحال لقوله هذا وإن وقف يتأمله وهو يتبع قوله بالعمل . فيأمر فرسانه بالركوب على عجل .. ويخطب فيهم بما قرره فيملأ قلوبهم بالأمل .. ويقودهم فى حماس لنجدة أهل نجد .. وملكهم النعمان بن حنظل ! .

وهنا قال رحال لرجاله :

– يا قوم .. هذا الرجل معه حق فيما رمانا به من تقريع ولوم .. هيا بنا نسير وراءه لنرى ما سيحدث بينه وبين الجليلى .. فإن كان النصر له .. دخلنا المعركة إلى جانبه وشاركناه النصر .. أما إذا هُزم .. عدنا كما كنا ، ويا دار ما دخلك شر ..

فوافقوه على هذا الأمر .. وساروا خلف جبير ورجاله ولكن فى طريق غير الطريق .. حتى يتبين لهم العدو من الصديق ..

أما جبير فقد حث الخطى مع رجاله إلى حيث كان النعمان محاصراً بجنود الجليلي من يمينه وشماله .. يبحث عن مخرج من ذلك الكرب .. ويدعو الله أن يخرجه من هذا الموقف الصعب .

وبينما كان الحصار على جُنوده يشتد .. وبين لحظة وأخرى يتوقع أن تحل ساعة الجد . فإذا بالدائرة تدور .. والمأزوم المكسور يكاد يصبح هو الفائز المنصور .. ولم يعرف الملك النعمان بن حنظل .. السرَّ فيما حصل .. فبدل يأسه إلى أمل .. ولم يستطع تفسير كيف أتته النجدة من السماء .. فارتبكت بسبب هجومها الصاعق جيوش الأعداء فأربكت قوات الميمنة وخلخلت صفوة الميسرة .. وجعلت أمامهم إلى الوراء .. ووراءهم إلى الأمام ..

صلوا على سيد الأنام وسبحوا من له الثبات والدوام .. ومسبب أسباب الحرب ومدبر أمور السلام .

* * *

حين أطل جبير وفرسانه على الوادى الذى التقى فيه الجليلي مع النعمان .. وجدوا موقف ملك نجد فى غاية العصوبة .. إذا أحاطت الجيوش بالجيوش .. وأحكمت قوات المعتدين الحصار حول من خرجوا ليحمو الديار .. وكالبرق الخاطف هبطوا من فوق الجبل منقضين كالسيل مشهرين السيوف .. يصيحون بالمحاصرين أن اصمدوا .. وهبوا للقتال ..

وانقلب الحال ..

وفى الوقت الذى فوجىء فيه الجليلي بهذا الهجوم المفاجىء الذى لم يكن فى الحسبان .. بلع الملك النعمان ريقه الجاف وسارع يأمر رجاله بالتقدم .. فانقلب المحاصرون إلى محاصرين .. وغسلت دموع الأمل قلوب الذين كانوا خائفين ..

وأخذ الملك الجليلى يبحث وسط المعركة عن قائد المهاجمين حتى وصل إليه وهجم عليه وهو يصيح به .

- من أنت ومن أين أتيت أيها المقتول ؟ ..

فعلا صوت جبير حتى صار أعلا من صليل السيوف ودق الطبول وقال له :

- أنت القتيل يا من تجبرت واعتديت ..

صاح به الجليلى :

- قل لى من أنت ومن أين أتيت ، أيها المهان ..

قال جبير ..

- لست مهانًا ولا جبانًا أيها الطاغية فأنا جبير .. ابن المنذر الهلالى .. الذى فى الحق لا يبالى .. فاحذر لنفسك يا جليلى وانظر إلى شأنك وارجع عن عدوانك ..

وانقض عليه فتلقاه الجليلى بما يعادل قواه .. وظل البطلين كالجبلين يصطدمان ويفترقان .. وكل منهما لا يجد طريقًا للآخر حتى حلّ الليل ، وحان وقت الانفصال .. فافترقا على موعد فى الصباح لاستئناف القتال ..

وحين عاد الجليلى لقومه سألوه عن خصمه فقال لهم كيف كان .. وكيف أصبح النصر الآن من الصعوبة بمكان .. وأشار عليه صحبه أن يرسل إلى جبير هذا ويساومه ويرغبه .. ويغريه أن ينضم لصفوفه ، وأن يعده أن يمكن له فى أرض النعمان .. وأن يزوجه من ابنته غصن البان حتى يتجنب الخسران ...

واقتنع الجليلى بذلك .. وقد رأى أن جبيرًا لا مصلحة له مع هذا أو ذاك .. أو هكذا اعتقد .. فدعى فتى من فتيانه وسلمه رسالة إلى جبير بما معناه :

« مادامت ليست لك مصلحة معهم .. فكن معنا ، فتنال منا الغنَى والجاه ..» .

أما ما مكان من أمر جبير فقد نزل فى ضيافة الملك النعمان الذى اعتبره من الأهل والخلان .. واستقبله بكل حفاوة وإكرام .. ودعا أهله ليسلموا عليه ويزفون أيات الشكر إليه ...

وحين رأى ابنة النعمان حسنا .. ملكت فؤاده .. ولما نظر فى عينيها أحس أنها من الدنيا مراده .. ولم يعد يرى فيمن حوله سواها .. وكما وقعت هى على أرض هواه سقط هو فى بئر هواها ...

وحين وصل رسول الجليلي بخطابه إلى جبير اختلط عليه الأمر فلم يعرف زيد من عبيد .. وسلم الخطاب إلى غير المقصود به العنوان .. وأوصل الكتاب إلى الملك النعمان ..

فلما قرأه خاف أن تغرى العطايا التى وعد بها الجليلي جبير بالانضمام إليه .. فقرر أن يقدم له من الهدايا ما هو أكثر وأن يقطع الطريق عليه .. وراح يستشير أهل بيته .. والمقربين من عشيرته ...

فقالت له حسنا وكانت تقرض الشعر وتحسن الأدب :

- اذهب يا أبى إليه واتخذه ولدا .. فلولاه لكنا الآن أسرى وجوارى .. ولولاه لكنا مشردين فى البيد أو فى بلاد الجليلي إماء وعبيد ......

اطمأن النعمان لحكمة ما استقر رأيه عليه ، رغم معارضة أبيه حنظل الذى قال لجبير :

- يا بنى .. لقد صرت كبير السن واهن العظم غير قادر على حكم البلاد .. ولقد عزمت وتوكلت على الله .. إن قتلت الجليلي وكفيتناه شره .. أن تكون لنجد حاكمًا فأنت لها .. ومن أهلها .. وأن أزوجك ابنتى حسنا .. التى لولاك اليوم لصارت عند الجليلي جارية أسيرة .. فأنقذتنا وأنقذتها لتظل مكرمة وأميرة .. فهى لك وأنت لها ..

فوجئ جبير بما يعرضه عليه النعمان ، فهب من مكانه إليه وقبل يديه .. وقال له :

- أنت كأبي يا سيدى .. وقد غمرتني بفضلك ، وجعلتني من ضمن أهلك . فافعل ما بدا لك فأنا طوع أمرك .. وما جئت إلا لنصرتك على عدوك فلا تشغل بغير ذلك بالك ..

لكن الملك النعمان لم يضع الوقت بل أراد أن تسير الأمور إلى ما عقد النية عليه .. فدعا رجاله وأهل دولته وعرض عليهم فكرته .. وأمرهم أن يلبسوا جبيراً بدلة الملك فألبسوه .. وأن يجلسوه على كرسى الإمارة فأجلسوه وبايعوه ...

وقال له :

- الآن يا جبير أصبحت حاكم بلاد نجد فخلصها من الأعداء .. واكشف عنها البلاء ..

ثم أحضروا القاضى .. وعقد له على حسنا بنت النعمان ، وبات الجميع فى طرب وانشراح حتى طلع الفجر ولاح الصباح ..

أرسل جبير إلى الجليلى مكتوباً يهدده بالويل .. إن لم يقم بتسليم نفسه إليه أو ينسحب إلى بلاده بما معه من رجال وخيل .. فاشتد الغيظ بالجليلى وأرغى وأزبد .. وأمر بدق الطبول وبالهجوم على رجال نجد ..

والتحم الجيشان وتلاقت السيوف .. واصطدمت الدروع بالدروع .. والتحمت الرماح بالرماح .. وأخذ جبير يبحث عن الجليلى وسط الجموع حتى عثر عليه .. وطارده حتى لحق به .. وطوقه حتى حصره .. وضغط عليه حتى عصره . وضربه بالسيف فأطاح برأسه .. وما أن رأت جيوش الجليلى ما حدث لقائدها .. حتى وهنت منها العزائم ولم يقم لها قائم .. فولوا هاربين مهزومين .. بينما لاحقتهم جيوش جبير والنعمان .. حتى طردوهم من بلادهم .. وعادوا بكل الغنائم والأسلاب وردوا ما سلبوهم من أموال وحرروا ما أسروهم وسبوهم من نساء ورجال .. عادوا جميعاً ومعهم رجال الرحال .. الذى اندفع بعد أن تأكد من انتصارهم إلى القتال ليشاركهم شرف النصر كما قال ..

قال الراوى ..

سبحان مغير الأحوال ..

ومقدر مصائر الرجال ..

فقد وهب النعمان إلى جبير كل ما ملكت يداه .. فصار هو ملك نجد حاكمًا على مائة ألف قرية .. وشاع خبره فى البلاد وانضم إليه المئات من خير الأبطال والأجناد .. وتحدث عنه وعن كرمه الشعراء والأمراء .. فقد فاق النعمان فى كسوة العريان وإطعام الجوعان .. وإكرام الضيف .. وصارت بلاده مقصد كل الناس فى الشتاء وفى الصيف ..

ألم أقل لكم سبحان مغير الأحوال ومبدل مصائر الرجال ..

فها هو الشريد ابن الشريد ..

يستقر له الأمر من جديد ..

لدرجة لا يستطيع معها أن يطلب المزيد ..

ولكنك تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد .

وإلا لظل القديم قائمًا لا يفسح الطريق للجديد ..

* * *

زمار الحى لا يطرب

حكاية سالم الشاعر

قبيل الفجر ..

خرج الشعراء الثلاثة .. فلاح بن راشد وأخوه سالم وصديقهم اللدود فراج ابن السوداء من خيمة المغنية هند البصْرية .. وقد أفلسوا تماماً ولكنهم كانوا فى غاية النشوة والمرح ..

لقد صرفوا كل ما معهم وصاروا يا مولاى كما خلقتنى ، ولكن ما الجديد فى ذلك وهم دائمًا كذلك .. أنهم قضوا ليلة لن تتكرر مع موسيقى هند الساحرة التى تنطق الجماد وتحرك الحجر .. وأكلوامن الطعام أشهاه ، وشربوا من الشراب أحلاه ..

هكذا كانت حياتهم وستبقى هكذا إلى يوم الدين ..

- آه .. لا تذكر الدين .. ياســـالم .. فأنا مدين بألف لابن البكرية .. ولو شم رائحتنا ستجده أمامي الآن يجرنى للقاضى ...

ضحك الثلاثة وهم يتساندون ويتضاربون ويطارد بعضهم بعضًا وقد ملأوا الليل صخبًا وضجيجًا ..

- هش .. هش .. لقد اقتربنا من بيوت الأمير جابر .. ولو سمعنا نضحك لأمر بجلدنا .

- هش .. هيا .. بنا ندخل عليه لنمدحه ..

– أتريد أن تثكلك أمك .. يا كاره أمك ..

كادت ضحكاتهم أن تفضحهم .. لولا عاد كل منهم ليسد فم الآخر .. وهم يسرعون بالابتعاد إلى حيث يأمنون ألا يعترض طريقهم أحد . قال سالم :

– اسمعوا لقد جاءتنى فكرة لو نفذناها لامتلأت سراويلنا ذهباً وفضة ...

ضحك فلاح :

– طوال عمرك وسراويلك تمتلئ ..

ضربه سالم فوق رأسه .. فضحك فراج وحال بينهما . ولم يكمل فلاح بل طوحت به الضربة ، فاحتضن نخلة قريبة سقط تحتها وهو يضحك ..

– لم أكن أعنى ما أغضبك أيها القذر .. إن أفكارى أنظف من ذلك كثيراً ... ولكنك نفاية ولا تفكر إلا فى النفايات ..

– اسمعوا .. أنا أتكلم بكل جديةٍ .. افهموا .. وعدونى أن تطيعونى ...

– وما الجديد فى الأمر .. طوال حياتنا ونحن نطيعك كعبيدك .. ألم نطعك وذهبنا لمدح ذلك الأمير القبيح الوجه ابن خزيمة .. فجلدنا ..

كان تذكر هذه الواقعة بمثابة بركان من الصخب والهرج .. لا حدود له هز سكون ليل الصحراء .. بقهقهات كقهقهات الشياطين المرحة ..الضاحكة .. وهذا بالضبط ما جعل الحراس ينكمشون بل ويبتعدون عن مصدر هذه الضحكات المهولة المجهولة ..

– هل كان من الضرورى أن تصفه بالأسد الغضنفر .. فى حضور زوجته ..

– لقدظننت أنك تعرض بها ..

– لا .. وقلت له .. وجهك كالبدر فى الظلماء .

– كاذب .. من أصل وجهك ..

– لا .. من أصل وجهه ..

– ولكن هذه المرة .. عندى ما يعوضكم .. أقسم لكم أننا لن نفلس بعد اليوم .. صدقونى فأنا من فترة وأنا أتقصى حقائق القصة التى سأرويها لكم .. وقد وصلنا لطريقة تجلعنا أغنى شعراء البادية .. والحضر أيضاً ..

– أية قصة ؟ ..

– قصة أميرنا جابر ..

– مرة أخرى .. اسـمع .. كفي مـا لقيناه الليلة من إفـلاس .. واتركنى أذهب لأنام ..

– لا تكن عجولاً .. فالأمر لا يخص جابر .. ولكنه يخص أخاه جبير ..

– وأين هو أخاه .. يا أخى .. يا ليتنى فعلت معك ما فعله جابر بأخيه .. كنا الآن ننعم برضى العيش بعيداً عنك ..

– لا .. كنت أنا الذى سيعيش ملكًا .. لو كان حظى كحظ جبير ..

– حظ ؟ .. لا ..الأمر فيه ما فيه .. اهدأ يافراج ودعنا نسمع له هذه المرة ولتكن الأخيرة ..

– كل مرة تقول أنها الأخيرة ..

– هذه المرة .. أخيرة .. أى أخيرة .. فليس لدينا ما نفعله سوى هذا .. ما هى القصة ؟ ..

– كتبت قصيدة في مدحه ، ولكني حكيت فيها كل ما عاناه من غربة وقسوة .. وكيف جاءه الفرج بعد الشدة .. ولكنى ضمنتها ما يوحى بأن قدره .. إنما هو طرف من قدر أجداده .. وقلت فيها أنه سيكون رمز انتصار وسعد أهله .. منذ جده هلال إلى الأبد .. وضمنتها ما تحمله فى شجاعة الرجال هو وأمه من تعب وتشريد حتى تم سعده ومجده ..

– من جابر ؟! ... أى مجد وأى سعد ؟ ..

– ليس جابر يا غبى .. وإنما أعنى أخاه .. جبير ..

– وأين نجده ؟ ..

– أنا وجدته .. أنا لا ألعب .. أنتم تلهون وتعبثون وتفلسون .. وأنا الذى ينقذكم دائمًا ...

تربصا به كعادتهما ليوسعانه ضربًا .. إعلانًا عن موافقتهما على خطته رغم أنهما لا يفهمان كيف ولا متى .. ولكنهما أسرعا خلفه لإعلان الموافقة بطريقتهما .. فأطلق هو كالعادة أيضًا ساقيه للريح .. فهو يعرف أن موافقتهما على اقتراحاته التى غالبًا ما تنجح .. لا تكن إلا بعد أن يشبعا رغبتهما فى ضربه علقة ساخنة ترعب ثعالب الصحراء فى أوجارها ...

* * *

قال الراوى ..

منذ شهور وسالم يتقصى الأخبار .. ويسأل الفرسان والتجار .. كان قد سمع برحيل جبير من بلاد السرو وانقطاع أخباره .. إذ هدد جابر كل الملوك والأمراء الذين بجواره .. وأنذر من يحميه أو يقويه بتخريب دياره ..

ولم يكن المنذر فى صحة تجعله يفرض على جابر أن يخفف من غله ، أو أن يأمره بترك أخيه فى حماية أخواله وأهله .

وعرف سالم بما جرى مع جبير .. ونجدته لأمير نجد وانتصاره على الجليلى .. وما حدث من زواجه من بنت النعمان ابن حنظل التى كانت أجمل بناته .. وكيف انتشرت أخبار كرمه وبطولاته ..

فاقنع صاحبيه .. وشدوا ثلاثتهم الرحال إليه .. وكان قد نظم عنه قصيدة عصماء .. يحكى فيها قصة جده الكبير هلال .. وما جرى له مع المنذر سيد الرجال .. وكيف

أن لعنة بنت رسول الله على سلالته بالتشرد والشتات .. ودعوتها لهم بالنصر والثبات .. مازالت تحكم تصرفاتهم .. وتلون بالفرحة وبالحزن حياتهم ..

فلما دخلوا على جبير وأنشدوه أشعارهم عرفهم جبير ، فأخذ يسألهم عن أهلهم وديارهم ، وأصر على أن يستضيفهم لأربعين ليلة كاملة ، شهدوا فيها صنوف الكرم والإكرام .. ما لا ينسى على مر الأيام ...

وفى النهاية سمح لهم بالذهاب بعد أن أعطاهم عطايا تأخذ بالألباب ، فخلع عليهم ثلاث خلع .. غاية فى البدع .. وأعطاهم ثلاثمائة جمل . كل جمل محمل بما حمل .. وثلاثمائة رأس من الخيل الأصيل .. التى تتقاتل فى سبيلها القبائل . هذا غير الدنانير التى تليق بمكانة الأمير جبير . وعاد الشعراء الثلاثة وهم لا يصدقون .. أن خطة سالم وقصيدته لن تدعهم بعد اليوم يفلسون ....

ولما عادوا للديار انتشرت عن عودتهم الأخبار حتى وصلت إلى جابر فاغتاظ وثار .. وخاصة عندما رأى الناس يتحدثون عن كرم جبير ، الذى رأى منه هؤلاء الشعراء الكثير .. وكان غضبه أكثر لأنه أحس أن جبير لم تبتلعه الصحراء .. وأنه هو الذى يتحدثون عنه .. وأنه رغم ما فعله معه نجا وفاز .. وصار على هذه الدرجة التى يلهج بالثناء عليها الشعراء ..

فأمر بإحضارهم ليتحقق بنفسه من أخبارهم .. فقال لسالم :

- أرأيتم .. أخى جبير .

فأسمعوه أشعارهم .. طلباً لرضاه . وللتخفيف من غضبه .. وطمعاً فى عطاياه .. ولكنهم عندما أعادوا على مسمعه .. ما رأوه من كرم الأمير جبير أمير نجد، وما له من هيلمان وسلطان .. صاح بهم :

- ليس عندى لكم سوى الجلد والقتل .. فكيف تقبلون الهدايا من الأعداء ..

ولولا أن أبوه تحامل على نفسه وحضر المجلس لفعلها .. وجرعلى نفسه وعلى أبيه العار .. قال المنذر :

– لقد تماديت ياجابر .. منذ سنين وأنا صابر .. طردت أخاك وأغضبت أمك .. وتأتي الآن تريد أن تجر علينا عار العرب .. فتهين الشعراء وتفكر فى قتلهم .. والله .. الذى نفسى بيده لو كنت بصحتى لأطحت برأسك أنت .

فاعتذر للشعراء على الفور ..

وهنا قال سالم :

– يا سيدى المنذر .. اسمح لى أن أقول لك أننى تأكدت أن جبير هذا هو جبير ابنك .. فلقد أنشدته قصيدة تحكى قصتك مع والدك .. وكنت أريد أن أرى تأثيرها عليه .. فإذا به عندما سمعها يبكى حتى سالت الدموع أنهاراً من عينيه ..

حاول جابر أن يضرب الشاعر سالم ليسكته .. لكن أبوه قفز من فراشه ومنعه ، بل ولطمه لطمة أخرسته، وكأنما عادت إليه صحته وفتوته ..

مما أخرس لسان جابر فلم ينطق بكلمة .. حتى عندما رأى المنذر يسير على قدميه .. ويجلس على كرسيه، ويأمر على الفور بشد الرحال لكى يكحل عينيه برؤية ولده الذى رأى على يد أخيه أهوال الغربة والتشرد .. مثلما ذاقها هو على يد والده هلال .. لكنه لن يسمح للأب فيه .. أن يقسوا كما قسا عليه فؤاد أبيه ..

* * *

قال الراوى ..

ثم أن المنذر ركب وركب معه مائتان من الأبطال ومائتان من الجمال محملة بالأحمال .. طالبًا بلاد نجد ليرى ابنه جبير وليعتذر له ولأمه عذبا .. عما فعله بهما جابر ابن هذبا .. التى طلبت أن يأخذها معه لكى تُعْلِمْ عذبا أنها بريئة مما ارتكبه جابر من أفعال دنيئة ..

وما أن اقتربوا من نجد حتى أرسل المنذر الشعراء الثلاثة ليخبروا الملك جبير بقدوم أبيه إليه .. ليعتذر له وليكفر عما لاقاه بسبب أفعال أخيه ..

وأمر الملك جبير أن يخرج فى موكب عظيم لاستقبال الضيوف .. وحوله ألف من العساكر بالرماح وبالسيوف .. يحيطهم ضاربى المزامير وناقرى الدفوف .. وسار إليهم وقابلهم فى منتصف الطريق .. مقابلة الصديق للصديق .. التى هى أطول عمراً وأبقى على الدهرمن لقاء الابن بأبيه أو الشقيق للشقيق ..

وبعد أن سلموا على بعضهم وسط بكاء الفرحة ونحيب الشوق .. نزلوا عن الخيول .. وتعانقوا حتى جفت العبرات .. وعادت الأنفس راضيات غافرات . وبعد أن ارتاحوا من عناء الطريق ، دقت الطبول ونفخت الزمور وشدوا الرحال إلى بلاد الملك جبير ..

واعتذر المنذر لابنه وغفر الابن لأبيه .. وتعاهدوا على نسيان ما فات . وأن يصلح السلام بينهم ما هو آت .. فهل يا ترى تتحقق الأحلام .. وتسمح الأيام .. وهل إذا غفر المظلوم للظالم .. يكف الشرير عن فعله الغاشم ..

صلوا على سيد « بنى هاشم » . وادعوا الله أن يجمعنا فى سلام .. لنكمل الكلام والنظام .

* * *

فارس بنى زحلان

قال الراوى ..

صلوا على الرسول خير الأنام .. الذى بذكرة يحلو الكلام .. ويفتح لنا باب القبول ويكتب لنا بالوصول، وقولوا معى ياسادة ياكرام .. سبحان من له الدوام .. من ضرب لنا الأمثال بالأقوال وبالأفعال ، وجعل التاريخ وحكايات الأبطال عبرة لبنى الإنسان ، وعلمنا أن نستعيد ما كان .. كى نستفيد من صراع الخير مع الشر ، والقديم مع الجديد .. لنستعد بعقل سليم وعزم شديد لمستقبل الأيام ، ونحقق الآمال والأحلام .. ونبنى للأطفال العالم السعيد ..

لذلك ياسادة يا كرام سنحكى ونعيد حكايات فارس الفرسان ، ومغامرات بطل الأبطال : بركات ، سلامة الهلالى ، أبو زيد !!

معركة لا تسيل فيها الدماء

كانت الأرض المنبسطة تبدو كساحة قتال عنيف لا يهدأ ، وإن كان قتالاً بلا ضحايا ، لا تسيل فيه الدماء .. كان الشباب من أبناء قبيلة « الزحلان » يتدربون على فنون القتال ، تحت إشراف معلمهم الفقية العجوز « ابن الخطيب » الذى كان يدور كالنحلة بينهم ، ملقياً بتعليماته ، منبهاً أحدهم لخطأ قاتل، أو معدلاً وضع رمح فى يد آخر ، أو معترضاً على طريقة ثالث فى الاشتباك ..

وكان صوته المشروخ المثير للضحك هو الصوت البشرى الوحيد الذى يرتفع وسط صليل السيوف وطقطقة الرماح ، واحتكاك العضلات بالعضلات، أو ارتطام القبضات بالرءوس، أو اصطدام الأجساد بالصخور والأرض الصلبة .

فى السماء ، كانت الطيور الجارحة تحوم فى صمت وقد خدعتها الأصوات والآهات ، فظنت أنها معركة بعدها وليمة من الضحايا .. فمضت تدور فى سماء الساحة في تربص وجشع ، دون أن تعلم أن تلك ساحة تدريب ، لا تخلف أشلاء ولا تسيل فيها الدماء .

مضت الساعات وأبناء قبيلة الزحلان لا يتعبون ، إذ كانوا يعرفون أن مكانة قبيلتهم وسط القبائل ، فى تلك الصحراء القاسية ، مرهون باتقانهم فنون القتال ، وكان لديهم إحساس غير قليل بالعار لأن ملكهم إضطر منذ سنوات ، أن يقبل مرغمًا دفع نسبة فادحة من أموالهم وأنعامهم ، إلى عدوهم اللدود (أبو الجود) بعد أن هزمهم وأجبرهم على التزام حدود وادى الدقائق ووادى النسور ، تاركين الأرض الخصبة مكتفين بالأراضى البور .

كان أبناء الزحلان يدركون قيمة ما يمتلكه ذلك العجوز الماكر ، الذى يتولى تدريبهم ، ويعرفون أن حريتهم مرهونة بأن يستوعبواً ما لديه من علوم وخبرة .. فى فنون القتال .. لذلك كانوا يطيعونه ويحبونه ، وإن لم يخل الأمر تمامًا من محاولتهم السخرية من طريقته فى نطق الحروف ، خاصة عندما يغضب ، فكانوا يقومون بتقليده فى أسمارهم خفية عنه طبعاً .. لأن أقواهم ما كان يصمد أمامه لحظة ، رغم كبر سنه وضآلة حجمه إن أراد يعاقبه ، أو يلقنه الأدب .

* * *

قال الراوى ..

وحده « بركات » .. كان يستطيع ذلك ..

ترى هل كان ذلك لأن بركات الذكى الماهر كان أخف حركة منه ، ويستطيع تفادى حركاته الماكرة المفاجئة ، ويتوقعها قبل أن توقع به ، بطريقة يبدو معها التلميذ ، أكثر من أستاذه مهارة .. أو ند له حين يتصدى له بجدارة ..

أم لأن ابن الخطيب كان يتسامح معه ، لأنه أحب أبناء الملك الزحلان إلى أبيهم .. أم لأنه يحبه بالفعل ويجد فيه تلميذه النجيب ، لذكائه الشديد ورأيه السديد ، وقدرته على استخدام عقله ، بنفس القدرة على استخدام عضلاته وسيفه الحديد ..

إكتسب بركات هذه المكانة في قلب معلمه منذ أحضره إليه الملك الزحلان ليتولى تدريبه وتعليمه منذ أكثر من خمس سنوات وكان صبياً ما يزال .. يومها تعجب الفقيه قليلاً لأنه لم يسمع باسمه من قبل كأحد أبناء الملك . . لكنه حين حاول أن يسأل عن ذلك ، نهره الملك بشدة قائلاً :

- أن هذا الأمر سر شخصى للملك وحده ..

فابتلع المعلم لسانه ، وطوى الشك فى قلبه ، وتعامل مع بركات على أنه أحب أبناء الملك إليه دون أسئلة ..

كان للملك الزحلان ولدان آخران ، هما منعم ونعيم يتعلمان فنون الحرب ، ويتدربان على القتال ، مع أخيهما بركات .. وذات يوم ، أراد الشيخ أن يعاقبهما بالجلد لخطأ جسيم ارتكباه .. لكن بركات أشفق عليهما .. وتحمل الضرب بالسوط عنهما ، دون أهة ألم واحدة .. ما زاد إعجاب معلمه به ، وزاده قرباً منه ، حتى صار يعهد عليه بمتابعة تدريب أقرانه ، حين يغيب لشأن من شئونه .

وزاد الأمر بينهما توثقًا ، بذلك الإتفاق الطريف الذى عقده بركات معه ، يوم ساومه فى مرح :

- دينار ذهبى كل يوم .. فى مقابل أن تعلمنى لسان الفرس والترك والأكراد .. ولهجة البربر ولغة الطليان ..

- دينار ذهبى ؟!

- ذهبى !!

- كل يوم ؟!

– كل صباح .. وأيضاً تلقننى أسرار الصباغة والصناعة وعلوم الكيمياء .

دهش ابن الخطيب وقال :

– وكيف تستطيع أن تستوعب كل هذا ؟ وأنت تتدرب على فنون القتال والحرب ؟

ضحك بركات وقال :

– هذا شأنى ياصاح ، ودينار ذهبى لك كل صباح ..

وقبل الشيخ الاتفاق ، فى البداية على سبيل الفكاهة ، كان يتصور أن بركاتاً سوف ينسى بعد فترة تلك العلوم الصعبة ، وسيمل منها ، وينشغل كغيره من الشباب فى اللهو واللعب ، والطعام والشراب ، بدلاً من إرهاق عيونه بالورق والكتاب ..

ولكن بركات لم يغفل ، وظل على مثابرته فى استيعاب فنون الضرب والحرب والفروسية ، بقدر اندماجه فى دراسة الكيمياء والصباغة واللغات الأجنبية ...

وكل يوم كان الرجل يضع الدينار الذهبى فى كيس خاص يزداد بمرور الأيام إمتلاء فى الوقت الذى يزداد معه حبه لبركات ، الذى كان يزداد كل يوم شجاعة وذكاء ..

أخر الدنانير

– بركات .. بركات .. أدركنا يا بركات ..

رددت الجبال المحيطة بالوادى صرخة الرجل ، الذى جاء منطلقًا فوق حصانه ، مخترقًا ساحة التدريب .. توقف اللعب فجاة حتى أن بركات نسى أن ينزل الرجل الذى كان يصارعه ، وظل يرفعه فوق رأسه لفترة قبل أن يلقى به وهو يحدق فى القادم الصارخ .. وأقترب منه الشيخ ابن الخطيب مستطلعًا الأمر ، حتى وصل الرجل فنزل من فوق حصانه .. واندفع نحو بركات ....

– أسرع يا بركات .. لقد فاض الكيل بأبيك الملك .

– ماذا حدث ؟

– تمادى أبو الجود يابركات ، وتعدى حدود الأدب .

– هل هاجم مضاربنا .. ؟!

– يا ليته فعل .. ولكن الأدهى من ذلك ، أنه تعمد إهانة ملكنا والإساءة إليه !

بكى الرجل ، وهو يقول ذلك فأخذ بركات يربت على ظهره مهدئًا ..

– اهدأ .. واحك ما حدث .. دون زيادة ..!

– لقد أرسل أبو الجود عبداً حقيراً من رعاة الغنم برسالة لأبيك ، ينذره بدفع ما قرره علينا من أموال في الحال .. وإلا .. دمر مضاربنا وأحرقها .

إبتسم بركات ليخفى غيظه وإنفعاله .

– ولكن موعد الدفع لم يحن بعد ، فماذا وراء هذه العجلة .. ؟!

– إن لهجة الخطاب المهينة أصابت والدك بأزمة ، حتي خشينا عليه .. وأظن أن أبا الجود يقصد هذا تماماً .. لذا تعمد تجاوز حدود الأدب ...

لم يجب بركات ولم يعلق ، وإنما أسرع وقفز ممتطيًا حصانه دون سرج ، وأرخى لجامه فإنطلق به . أشار ابن الخطيب إشارة أنهى بها التدريب ، واندفع الرجال على أثرها يمتطون جيادهم ، وينطلقون فى أثر بركات ، مثيرين عاصفة من الغبار ، هيّجت الطيور الجوارح مرة أخرى ، فمضت تحوم صارخة في سماء الوادى ..

بينما عاد ابن الخطيب نحو كهفة المنحوت بين الصخور .. مد يده ، تناول الكيس الذى يحتفظ فيه بدنانير بركات الذهبية .. فتحه فى هدوء .. وأسقط دينار اليوم مع أشقائه وتمتم وهو يغلق الكيس ويعيده لمكانه ..

– أنا متأكد أنك ستكون آخر دينار يدفعه لي بركات .. فقد نضج الآن ، وصار مؤهلا ليتصرف تصرف الفرسان .. وصار يمتلك من الشجاعة والقوة ما يكفى ، لكى يدله قلبه الكبير وعقله الراجح .. على الفعل الصحيح لفارس نبيل .. !

عفوك يا ملك زحلان

قال الراوى ..

وصل بركات إلى مضارب الزحلان فقفز من على حصانه وانطلق إلى داخل خيمة الملك مزيحاً من يقابله من الحراس وهو يزمجر غاضباً ..

وما أن رأى المنظر الذى أمامه حتى انفجر غضبه فى آهة زلزلت أركان المكان .. كان الملك زحلان جالسًا ينتفض من الغم والكمد وحوله رجاله المقربين عاجزين لا يجرؤن على الكلام بينما يقف أمامهم وسط الخيمة عبد يرتدى ثياباً رثة معجباً بنفسه كطاووس أنساه غروره ما يجب أن يكون عليه من أدب فى حضرة الملك زحلان ..

أمسك بركات بخناقه حتى كادت تختنق أنفاسه .. ورفعه بيد واحدة .. وصاح في وجهه :

– هل أمرك سيدك اللعين أن تتطاول فى حضره أسيادك أيها الوغد اللعين وأن تتجاوز حدود الأدب ؟

ثم ألقى به بعيداً فكومه فى آخر الخيمة كبعض النفاية .. واندفع فتناول الخطاب من يد والده المرتعشة .. فلما قرأه ازداد غضبه وبرقت عيناه تطلقان شرر الغضب ، وأسرع مكشراً عن أسنانه نحو العبد حتى ظن الواقفون أنه سوف ينهش لحمه .. ولكنه رفعه من قفاه وأخرج سيفه القصير فانطلقت آهة فزع من فم العبد المسكين .. وقام بركات بحلق فروة رأسه .. ثم مزق الرسالة بنفس السيف .. وخلط الشعر بباقى الرسالة وحشاها تحت صديريته وهو يزمجر ..

– لولا أننى أحتاج لنذل مثلك كى يوصل رسالتى لأبى الجود .. لمزقتك إرباً إرباً .. هيا .. وقل لسيدك الجبان .. هذا هو رد الملك الزحلان .. وقل له أن نفس السيف فى انتظاره لا ليقطع شعره فقط .. بل لجز لسانه ورقبته .. قل له يا أبا الجود لقد ارتكبت خطأ ستدفع ثمنه غالياً ..

ثم حمله بقبضة يده مرة أخرى حتى أجلسه مقلوباً على ظهر حصانه .. ووكز الحصان وكزة جعلته ينطلق حرونا بالعبد المقلوب وسط ضحكات فرسان بنى الزحلان الذى كانوا قد لحقوا به ليشهدوا المنظر الأخير ويهتفوا إعجاباً به ...

قام الملك زحلان وقد عادت الروح تدب فى أوصاله .. واحتضن (بركات) فى حب وقال له :

– يابركات ياولدى .. لقد أعدت الدماء إلى عروقى .. الآن أطمئن لقدرة بنى الزحلان على الوقوف أمام جبروت أبى الجود .. ورد مظالمه التى طال احتمالنا لها .

وابتدأ بركات فى تجهيز الجيش .. والاستعداد للخروج لملاقاة أبى الجود الذى لابد أنه سيستشيط غضباً عندما يصل إليه العبد المقلوب فوق الفرس محلوق الرأس ليسلمه الرسالة الممزقة ..

* * *

مقتل الوزير عجير

غضب أبو الجود غضباً شديداً وأمر بدق طبول الحرب للانتقام من الزحلان وتأديب ملكها .. لكنت الوزير عجير وزير أبى الجود سأل العبد راشد عمن فعل به هذا .. ومن الذى حمله تلك الرسالة المهينة .. فقال العبد راشد :

– لم يكن الملك زحلان يا مولاى ولكن عبد أسود من عبيده اسمه بركات.

فازداد غضب أبى الجود وهب قائماً ليقود الجيش ولكن الوزير أصر على الخروج بدلاً منه .. لإحضار ذلك العبد الأثيم لتأديبه .. إذ لا يليق به يخرج ليطارد عبد كبركات ... ووافق أبو الجود وسمح لوزيره بالخروج فى عشرة آلاف مقاتل لأسر ذلك العبد وإحضاره حياً ، ليشفى غليله ..

قال الراوى ..

التقى الجيشان فى أحد الوديان ، واندفع كل منهما نحو الآخر اندفاع العاصفة .. واشتبك الرجال بالرجال .. والتحم الفرسان بالفرسان .. ونادى الوزير على بركات أن يبرز إليه .. فوجده يبحث عنه .. واصطدم الرجلان كالجبلين .. كان الوزير مقاتلاً قديراً ومبارزاً خطيراً .. فانقض على بركات فى شجاعة ، وجذبه جذبة كادت تخلعة من فوق فرسه ، لولا مهارة بركات وقدرته على الصمود .. فارتمى فى مرونه إلى جانب سرجه وتفادى حربة الوزير ثم استقام على ظهر حصانه وانزلق ، وهو يسدد حربته إلى صدر الوزير مباشرة فاخترقت جسده وهو يصيح صيحة شلت حركة الخيل والفرسان .. فوقفوا يشاهدون جسد الوزير وهو ينهار مرتطماً بالصخور والأحجار .. فى منظر رهيب ، أثار فزع رجاله فولوا الأدبار .. بينما تصاعدت صيحات رجال الزحلان ، فرحين مهلين بالانتصار ..

وحين وصل الخبر إلى أبى الجود ركبه الهم والغم .. وخاصة عندما عرف أن العبد بركات الذى مزق رسالته ، هو الذى قتل وزيره .. فصاح صيحة الحرب ،

وقال :

– لم يعد لك منى يابركات مفر .. ولن يكون للزحلان بعد اليوم أرض ولا مستقر ..

* * *

رُبَّ إبن لك ليس من صلبُك

قال الراوى ..

طلب بركات من ملك زحلان أن يبقى فى المضارب وسيكفيه هو عناء القتال ولكن الملك رفض وجمع أبناؤه منعم ونعيم ، وأشقاء زوجته جابر وجبير وأمرهم باللحاق ببركات ، وهو يقول لنفسه :

– عشت معي يابركات كل هذه السنين كابن لي ، بل أصبحت أعز أبنائي إلي ... وأثبتَ لي صحه ذلك المثل الذي يقول : « رب إبن لك ليس من صلبك .... » .

ولكن ، لا يجب أن تذهب للحرب دفاعًا عن الأرض بدلاً من أصحابها .. ليس من العدل أن تضحي أنت ، بينما أجلس أنا وأبنائي في عقر ديارنا ننتظر .. لا سنسير معك .. فمصيرنا مشترك ...

وقاد بركات الجيش حتى التقى بجيش أبي الجود ... إلى الشمال من وادي النسور وهناك تقدم وصاح بأبي الجود:

– كفاك ما ارتكبت من حماقات وإهانات .. فلنحقن دماء الرجال والجنود .. ما دمت قد جئت لتأديبي ، فاخرج إلي .. تقدم .. وليحكم بيننا السيف ...

برز أبو الجود وصاح به :

– لن ألوث حربتي بدماء عبد نجس مثلك ... عد إلى حظائر الغنم ياكلب العرب ، وأرسل سيدك ليقاتل بنفسه ، إن لم يكن قد قتله الخوف ... لن أقاتل عبداً مثلك ...

ضحك بركات وصاح به :

– أنني عبد بقدر ما أنت عبد لغرورك ... لست عبداً يا ملك .. أنما أنا (بركات) إبن الملك زحلان، وكفاك تهربًا من الحقيقة ، التي تقول أنك تكاد تنهار من الخوف ...

غضب أبو الجود لقوله ، واندفع نحوه صائحًا ، شاهراً سيفه ، وتطاير الشرر عندما التقى السيفان ، فارتفع لهما صليل رهيب ، أفزع الخيل والعقبان .. وظل الفارسان يتبادلان الضرب والطعان ، حتى حل الظلام ففرق بينهما ..

وما أن أشرقت شمس الصباح ، حتى عادا إلى ساحة المعركة ، وقد تجدد نشاطهما وظلا يلتحمان ويفترقان ، حتى بلغت الشمس كبد السماء، واشتدت الحرارة ولمعت السيوف ، واستبدل الفارسان أسلحتهما أكثر من مرة، واستعملا السيوف والحراب والخناجر ..

واشتبكا معاً يداً بيد وذراعاً بذراع أكثر من مرة .. ثم عادا إلى الخيل مرة بعد مرة .. وتعالت صيحاتهما مختلطة بصهيل الخيل وصيحات الطير وزعقات الرجال وشهقاتهم فزعاً وفرحاً أو غضبا ، وفجأة ، وفي اشتباك عنيف أثار سحابة من الغبار ، انطلقت صيحة ألم عميقة مختلطة بصرخة غضب أعلى ، مما حير الجميع ، وانتظروا انكشاف الغبار ليعرفوا ما جرى .. ولما انكشف الغبار ، كان بركات فوق فرسه التي رفعت قوائمها تصهل صهلة النصر ، بينما كان (أبو الجود) على الأرض مضرجاً في دمائه ..

سكن الوادي للحظات ثم انطلقت صيحات النصر من معسكر الزحلان .. وهنا صاح بركات مخاطباً رجال أبي الجود :

– أيها الرجال الشجعان .. لم نكن نريد هذه الحرب .. لكن أبو الجود أعماه الطمع ، فلم يعد يعرف قدر الرجال ، ولا قيمة الأبطال .. أعماه المال ، فارسل يهين الملك الزحلان .. ولكن نال جزاءه الآن .. فهل لكم أن تستمعوا لصوت العقل ..... وأن نكف عن القتل ..

وشقت كلمات بركات صفوف جيش أبي الجود .. وثار بينهم جدل شديد . انضم على أثره عدد كبير إلى صفوف جيش بركات ، وهم يلقون بأسلحتهم ، بينما اندفع آخرون إلى القتال ، فطاردوهم منعم ونعيم إبنا الزحلان ، حتى اضطروهم إلى الفرار ..

* * *

قال الرواى ..

أمر بركات رجاله بدفن الموتى وعلاج الجرحى .. وتقدم الملك الزحلان من بركات واحتضنه مهنئاً بانتصاره .. ونادى في رجاله قائلاً :

– يا أبنائي .. لقد عوضني الله فى شيخوختي بهذا الإبن البطل .. لذلك أطلب منكم .. الالتزام بطاعته ، لأنه سيكون أميركم بعدى .. واندفع نعيم ومنعم يعانقان

أخاهما .. بينما ظل جابر وجبير شقيقى زوجة الزحلان ، مترددين ، والتفت جابر هامساً لجبير:

– هل صدق الزحلان نفسه واعتبر بركات إبنًا من صلبه ليوليه إمارتنا . وأنا بنفسى استقبلته طفلاً مع أمه عندما لجأت به إلينا وأوصلتهما إليه ..

لكن جابر سارع يقول له :

– انسى هذا الأمر الآن ولا تفسد إنتصارنًا .. إنه هو الذى قتل أبا الجود .. وخلصنا من شره .

ابتلع جبير رفضه ، واندفع مع الجميع يعانق بركات ويهنئه ، ويقسم على طاعته كما أمر الملك الزحلان .

* * *

قال الراوى ..

ولم يكن هناك ياسادة يا كرام .. أسعد ولا أهنأ بالاً من أم البطل الهمام بركات الست خضرة الشريفة التى كانت قد وصلتها الأخبار .. فرقص قلبها فرحًا بانتصاره ، وراحت تراقب مظاهر الفرح بالإنتصار وإلى جوارها وقف الفقيه ابن الخطيب ، بعد أن سلم لها كيس الدنانير الذهبية ..

وهو يقول ضاحكًا :

– لم أكن أستطيع أن أرفض له طلبًا ياسيدتى «خضرة» ، كان مصراً على أن يكافئنى ، وأن يدفع أجرى .. وطاوعته ولم أفش سره لأحد وظللت أضع الدينار فوق الدينار ، ليكون هديتى له يوم أراه وقد اكتمل له العلم مع الشجاعة .. فاعطها له ياسيدتى هو سيقبلها منك عنى .. إنها نبوئتى وبشراى له المزيد من الزيادة والنصر حتى يعرف أهله وقدره .. وحين تطبق شهرته الأفاق فليذكر الجميع إننى كنت معلم بركات أبو زيد ، وهبته علمى وهما لا يقدران بثمن .

شيحا تنقذ بركات

عين قطف الزهور

كانت خضرة الشريفة واقفة تودع فى قلق ولدها بركات ، والذى كان مع أخويه ، منعم ونعيم ، ومجموعة من أصدقائهم يجهزون جيادهم فى مرح وصخب .. إستعداداً للصيد .. فقال لها الملك زحلان :

– لا تقلقي يابنة الشريف ، فابنك الذى قتل أبا الجود وخلص الدنيا من شرة ، ولا تهزمه السباع ، أدخلى ولا تخافى عليه ..

قالت خضرة ضاحكة :

– أنا أخاف عليهم جميعًا ياسيدى ، فلهم جميعًا فى قلبى نفس المكانة ، إننى أستنشق بعض الهواء ..

لكنها ظلت واقفة تراقبهم حتى اختفوا مع انحناءة الطريق ، ابتسم الملك ابتسامه العارف أن قلبها أصبح مشغولاً على إبنها أكثر ، منذ أعلن أنه الأمير من بعده وولى عهده ، لأنها كانت تعرف أن جابر وجبير إبنى شقيقته لا يوافقان على ذلك ، إلا خوفًا من مخالفته ، واحتراماً لإرادته . وكان يعرف أن معهما الحق فملك بنى زحلان من حق منعم أو نعيم ابنى الملك الحقيقين ، لأن بركات مجرد ضيف وغريب ، وأمه تشفق عليه من اليوم الذى ينكشف فيه السر ويعرف حقيقة نسبه !.

همس زحلان لنفسه :

- يا للأمهات .. أصبح ابنها فارساً وأميراً ومازالت تراه الطفل الصغير الذى جاءت لنا تحمله بلا حول ولا قوة . كفاك قلقاً يا خضرة فله فى قلبى معزة تفوق معزتى لأولادى ..

فجأة ..

قطع عليه أفكاره ضجيج وصياح استغاثة وفزع ، فأسرع حراسه يستطلعون الأمر ، فرأوا عدداً كبيراً من الرعيان ، يسوقون أمامهم القطعان ، وهم يصيحون رعباً .

- أدركنا يا ملك زحلان أدركنا .. بنو هلال داهمونا وانقضوا علينا كالذئاب والنسور ، وطردونا من مراعينا واستولوا على أراضينا حول عين قطف الزهور . الغوث الغوث !

ولم ينتظر الملك وصول بركات ، بل أمر أن يدق طبل الحرب لتأديب بني هلال وطردهم . وخرج على رأس جيشه فوجد بني هلال يقيمون خيامهم كأنهم ينوون الإستقرار فى المكان إلى الأبد .

فصاح فيهم :

- يا بني هلال .. تعرفون أنني ملك هذه البلاد ، وهذه الأرض أرضنا ، والمراعي لنا فارحلوا في سلام ، وعودوا من حيث أتيتم . هذا خير لكم لو كنت تعقلون ..!

ارتفعت صيحات السخرية والغضب بين بني هلال .. وأسرع فرسانهم إلى أسلحتهم ، ثم تقدم إليه فارس مهيب شاهرا سيفه وقال :

- القحط أصاب بلادنا يا ملك الزحلان ، وقضى على الأخضر واليابس ، وقد أتينا نطلب رضاكم والسماح بأن نحيا فوق هذه البطاح .. وسوف ندفع لكم العشر من إنتاج أراضينا وخير مراعينا وهذا فضل وعدل يا ملك .

وأثارت طريقة الأمير رزق الهلالي فى الكلام ضحكات ساخرة بين صفوف بنى هلال ، فاشتد غضب ملك الزحلان .. فقال :

- هكذا يا أمير ؟ وبلا استئذان ؟ ! تقتحمون الوديان وتطردون الرعيان ، ثم تتحدث عن الرضا والسماح .. عد من حيث أتيت يا رزق وإلا فليس بيننا سوى السلاح !

واندفع الاثنان كل نحو الآخر كالعاصفة ، وعلا بينهما الغبار وثار ، وظلا يتبادلان الضرب والطعن حتى انتصف النهار ، فخرجت منهما ضربتان فى نفس الوقت ، أما ضربة الزحلان فقد أبطلها الأمير رزق بدرعه الحديد ، أما ضربه الأمير رزق ، فنزلت فوق فخذ الزحلان فجرحتها جرحاً بليغاً ، ثم هبطت فوق عنق الحصان فقطعته .

فأسرع إليه رجاله يحيطون به ، حتى استطاعوا أن يأخذوه بعيداً عن رزق لعلاج جرحه .. واشتعل وطيس المعركة بين الجيشين .

وبينما كان الرجال يحملون الملك إلى خيمته وصل بركات ، فارتمى على صدر الملك معتذراً له ، يتأسف لمصابه ، وقد اشتد غضبه وحزنه .. ثم اندفع هو وإخوته كالعاصفة ، يصيحون صيحات القتال للانتقام من بنى هلال .

* * *

غانم الزغبى

قال الراوى ..

كان بركات يحس بالذنب لأنه خرج للصيد وترك والده الملك يتعرض للموت ، كانت عروقه تنتفض من الغضب على بنى هلال الذين لم يعد لهم عهد ولا ذمه ، منذ أصاب القحط أرضهم وحلت بهم الغمة . وصاروا فى الصحراء فلولاً ضائعة ، يهاجمون القريب والبعيد كالضباع الجائعة .

وكان قلبه يمتلئ بالغيظ أكثر .. لأنهم تجرأوا على مهاجمة بني زحلان ، الذين تناقل خبر انتصارهم على أبى الجود الركبان . فذاع صيتهم فى الصحارى والوديان .. وخافتهم القبائل فى كل مكان .

وعندما وصل بركات ومن معه إلى أرض المعركة ، صاح صيحة ارتجفت لها الجبال وتزلزت من مكانها الصخور ، فوقع حجر فى حجم العصفور على رأس رزق الجسور فأثار قلقه وجعله يقف متردداً لا يجيب على نداء القتال ، فأعطى هذا الفرصة كى يتقدم غانم الزغبى ويبرز للميدان لمواجهة بركات ..

صاح بركات فى غضب ، وعيناه يتطاير منهما شرر كاللهب :

– من أنت أيها الدخيل ، إرجع وأنقذ نفسك وأرسل رزق الدريدى لأمزقه بيدى ..

كذب غانم عليه وقال :

– رزق ذهب للصيد يا بركات .. مثلما كنت أنت تلهو فى الفلوات .. هيا ياصغير السن ياجهول .. لترى كيف يصول الزغبى ويجول ..

التحم الفارسان فى ضجة ودمدمة ثم إفترقا بعد جهد وعناد .. ليظهر غانم مجروحاً مضرجاً بالدماء .. وبركات يسخر منه ويعفو عنه قائلاً :

– إسرع ياطويل اللسان وداوى جراحك بعيداً عن الميدان ، هيا فقد نلت منا السماح ..

قالها وصاح :

– هل من مبارز منكم يا بنى هلال .. هل من رجال تخرج للقتال .. أم تفضلون انتظار الضيوف .. ليحملوا عنكم السيوف ..

خرج إليه الأمير عمار ، فعاجله بضربة كان فيها الدمار ..

فاندفع إليه القاضي بدير فجرحه جرحاً بليغًا جعله يطلب العفو منه فعفا ، ليعود مسود الوجه والقفا ...

كل هذا ورزق متسمر كحجر يتأمل بركات وفعاله ، وهو يود لو يخرج لقتاله .. لكن شيئًا كان يشق قلبه يهمس إليه ألا يفعل .. والناس تتعجب من رزق لأنه لا يسرع ولا يتعجل ، وظل الفرسان يخرجون واحداً بعد الآخر لبركات من كل الجهات ، فيصرعهم أو يجرحهم .. أو يأسرهم ، حتى زاد عددهم عن التسعين مابين قتيل وأسير وجريح وطعين .

وكل هذا ورزق ما يزال في مكانه يراقب .. وكأنه عن الوجود غائب ..

فقرر الأمير سرحان أن يخرج لـ بركات بنفسه ، فلما تقدم إليه ، حمل بركات عليه .. وطعنه بالرمح طعنة أصابت إحدى رجليه ، فعاد مهزومًا يعرج ويجر قدميه ..

نداء الدم

انتفض رزق غضبًا من نفسه ، وأسرع يمتطي فرسه .. وسط صيحات الرضا من الجميع فقد كان وحده الكفيل بإيقاف بركات عند حده .. وأن يرسله إلى لحده..!.

والتحم رزق وبركات تلاحم الأنداد الأبطال ، واصطدما اصطدام الجبال بالجبال .. فتبادلا الضرب والطعان .. تارة فوق الخيل ، وتارة فوق الرمال .. وطارد أحدهما الآخر بين الصخور ، قافزين صارخين كالنمور .. يتبادلان الأوضاع والأمكنة، مستخدمان كل الحيل والفنون الممكنه وغير الممكنة ، حتى تعب رزق وسال منه العرق كالبحر ، وكلّ بركات .. وكاد أن يفقد سيطرته على الأمر ... لولا أن رزق اقترح عليه أن يستريحا ، فأشفق بركات عليه ، خاصة حين نظر في عينيه ، فأحس شيئًا غامضاً يقربّه إليه .. !!

وانهمك كل منهما في إصلاح حاله .. وقد إنشغل باله ، متأملاً في قوة غريمه وأفعاله .. وكان الرجال من الجانبين يتأملوا البطلين .. صامتين كأن على رؤوسهم الطير .. وفجأة ..

صاحت إمرأة شابة ، من بين صفوف بني هلال في خوف وفزع محذرة بركات .

– احترس يابركات .. إحترس ....

وفي لمح البصر، قفز بركات مبتعداً من فوره .. متفادياً ضربة حربة ، كانت تستهدف ظهره ..

ساد صمت رهيب ثم اندفع الفارسان في ضراوة يستأنفان القتال ، حتى جُرح رزق جرحًا بليغًا على الرمال .. وتقدم بركات الغاضب يريد قطع رقبته ، فصاح به نفس الصوت الذي حذره من حربته :

– لا يابركات .. لا تقتله وكن كريماً واجعله أسير عطفك ، وعتيق سيفك .. فهذا أكرم لك وله يابركات !

لم يكن رزق قد صدق أذنيه حين سمع ذلك الصوت في المرة الأولى .. ولكنه وهو ملقى على الأرض في صمت ، ينتظر حد السيف والموت ، تأكد تمامًا أنه صوت إبنته شيحا .. فتمنى أن يقتله بركات على الفور ، هربًا من هذه الفضيحة !..

لكن بركات أغمد سيفه في جرابه ولم يفعل .. واستجاب للصوت الطيب الذي هز قلبه حين رجاه ، .. أن يتراجع عن قتل رزق ويهبه الحياة .. !

* * *

محاكمة شيحا

عاد رزق إلى معسكره مهانًا ، لأن عبداً كبركات وهبه الحياة فصار عتيق سيفه .. وهذا عار عليه ودليل على مذلته وضعفه .. ومن التى كانت السبب فى هذا ؟! إبنته شيحا !! يا للفضيحة !!

زعق رزق الغاضب فى رجاله .

- إجمعوا كل ماتجدون من خشب وحطب ،

واقبضوا على شيحا فسوف نحرقها الآن .. هيا ..

وضرب هذا لتردده ، وسب ذاك لأنه اعترض ، ودفع ذلك الذى حاول أن يتشفع لها .. فمضى الرجال مجبرين يجمعون الأحطاب ، بينما اندفع وهو فى ثورة من غضبه ، إلى حيث النساء ، وجر شيحا من ضفائرها ، وهو يضربها بكل قسوة .. بينما هى لا تتكلم ، ولا تتألم .. وإنما تنظر إليه مباشرة فى عينيه ، نظرة تفتت الأكباد .. وكأنها تسأله عن سر ما يفعله الآباء بالأولاد ؟!

كانت النسوة تبكى وتصرخ .. وكان الرجال صامتين فى حزن وغضب بينما رزق يكوم الأحطاب حول إبنته التى ربطها إلى عمود من الخشب !

* * *

وصل الخبر إلى الأمير حازم أمير بنى هلال وابنه سرحان الذى أسرع رغم جراحه ليمنع رزق ، عن فعلته الشنعاء وأمره أن يحل وثاق شيحا وهو يقول :

- لا تتهور يارزق ما هكذا تعالج هذه الأمور ، لا أحد يحرق ابنته لأنها أنقذت حياته ..

صاح رزق فى غضب :

- لقد خانتنا .. وفضحتنا .. وظاهرت عدونًا علينا .

قال سرحان :

- صرخت به لتمنعه من قتلك ، تعال لنبحث الأمر معا على مهل ولا نترك الغضب يعميك عن الحقائق ...

انتبه رزق فى غضب :

- أية حقائق ؟!

قال سرحان وهو يضع ذراعه فوق كتفه ليهدئه :

- وهل هناك حقيقة أشد من أبوتك يا رجل ؟! حقيقه الدم يارزق .. لا تجادل فى الحق بالباطل .. أنها ابنتك رغم كل شيء !

قال رزق :

- لا بد من محاكمتها لأنها خانتنا .. وتواطأت مع عدونا بركات ، ذلك العبد الذى لا يستحق سوى الموت ..

دخل الاثنان إلى الخيمة .. وأمر سرحان بعض الرجال أن يحضروا شيحا .. وكان كبار بنى هلال كلهم مجتمعين حول الأمير حازم الذى كان إلى جانبه القاضى بدير .. وأخذ رزق يوجّه الإتهام لابنته التى وقفت مرفوعة الرأس تنظر بقوة فى عيونهم مباشرة فتجعلهم يخفضون النظر خجلاً كالمذنبين ..

سألها القاضى :

- لماذا فعلت ذلك ياشيحا ؟!

قالت فى كبرياء :

- وماذا فعلت يا قاضى ؟ هل هى جريمة أن أنقذ أبى من الموت .. وانقذ شرفه ؟..

صاح رزق بها غاضباً :

– لقد صغَّرتني ! ولوثت شرفي وجعلت هذا العبد يعفو عني .. فصرت صنيع معروفه ..

قال سرحان :

– صمتا يارزق سيأتي وقتك لتتكلم .

والتفت إلى شيحا وقال :

أنا أسألك يا ابنتي عن صيحتك الأولى ؟ ما الذي بينك وبين بركات لكي تحذريه من ضربة كان يمكن أن توفر علينا كل هذا القتال ؟!

هزت شيحا رأسها في غضب وقالت في سخرية :

– هل كنت تريد أن يقتل أبي بركات غدراً .. ليسقط في نظر الجميع ، الغدر يا أمير من شيم الأنذال ، ورزق الدريدي ليس نذلاً يا أمير سرحان !.

سكت سرحان خجلاً بينما طأطأ رزق رأسه وارتبك الحضور ، فلم يستطع الأمير حازم أن ينطق بكلمة واحدة .. بينما فأفأ القاضي ، وقبل أن يبلع ريقه أسرعت شيحا تقول :

– لو أن أعينكم ترى ، وقلوبكم تحس وتفهم ، لرأيتم ما جرى أمامكم وفهمتوه .. ها هو بركات ابن الملك الزحلان .. أسمر اللون رغم أن أخويه منعم ونعيم أبيضان .. فلماذا لم يطرد الزحلان أم ابنه ؟ مثلما حرضتم أبي أن يفعل حين ولدت أمي له بركات أخي . أنني أتخيله كبيراً ، في مثل عمر بركات هذا .. وربما أقوى وأشجع منه .. لا يا سادة . أنا لم أخنكم .. لقد خنتم أنفسكم من زمن .. أنا أنقذت أبي ، نعم .. ولكني أنقذت شرفه أيضًا ، فهو ليس بالغادر الذي يقتل خصمه غيلة .. فالغدر من صفات الأنذال وحدهم يابني هلال .

قالت هذا واستدارت خارجة ، ولم يجرؤ أحد على اعتراض طريقها .. فمضت مرفوعة الرأس ، وعند الباب توقفت ، والتفتت قائلة :

- أنا فى انتظار حكمك يا أبى .. وتأكد أنك سوف تجدنى مطيعة لك على الدوام .. لكن أعلم أن الجرح الذى أبكانى صغيرة ، يوم طردت أمى وأخى ، مازال ينزف من قلبى دماً بدلاً من الدموع .. ولكن ماذا نفعل ؟! . هل للماضى رجوع ؟..

خيم على القوم صمت رهيب . ولم يجرؤ أحد منهم على قطع سكونه حتى قال الأمير حازم :

- ليذهب رسول الآن إلى "مكة" : ليسأل الشريف قرضاب عن أخبار ابنته خضرة وابنها ..

ثم صاح : يا مرزوق ..

أسرع إليه عبد خفيف الحركة كالعصفور .

- السمع والطاعة ياسيدى ..

همس له الأمير :

- طر الليلة إلى " مكة " .. خذ ما تحتاج من هُجُن سريعة . ولتكن هنا مع الصباح .. وعليك أن تحتال كى تتقصى لنا أخبار " الخضرا " .. هيا لا تضيع دقيقه .. فلا شيء الآن أهم من الحقيقة .. أما أنت يارزق فابق عندى الليلة .. لاتزد الأمور سوءاً .. لا أريدك أن تسئ إلى شيحا أفضل فتيات القبيلة .. فهى لم تفعل سوى ما أملته عليها أخلاقها النبيلة .. !

* * *

من أبوك يابركات ؟

عاد مرزوق من " مكة " بالحقيقة ، التى تقول أن قرضاب الشريف لم ير ابنته خضرة ولا ابنها الذى ولدته منذ خمسة عشر عاماً ، فازداد بنو هلال حيرة .. وهنا صاح رزق :

– أحضروا الأمير قايد .

وكان الأمير قايد قد اعتزل بنى هلال وعاش فى أحد الكهوف بعيداً يرعى بضع عنزات يعيش على لبنها ، منذ عاد من مهمته التى كلفه بها الأمير رزق ، يوم أمره أن يوصل خضرا وابنها إلى أبيها فى "مكة" !..

وفى البدايه رفض قايد أن يعود إلى هؤلاء الذين أصبحوا لا يقيمون وزناً لصلة الدم ولا يرعون الحرمات .. لولا أن عرف أن الأمر خطير ويتعلق ببركات وشيحا ، فعاد وأخبرهم بالقصة ، وكيف استجاب لما طلبته خضرة التى خافت أن تعود إلى أبيها مطلقة ومتهمة .. فطلبت منه أن يتركها للوحوش والضوارى وسوف ينجيها الله لبراءتها .. فأشفق عليها وأخذها بنفسه إلى الملك الزحلان ، وقص عليه حكايتها فأكرمها واتخذ من ابنها ابناً له .

قال الأمير حازم فى دهشة :

هل تعنى أن بركات هذا ... هو بركات ذلك ؟ ! هل تعنى أن بركات ابن الزحلان هو نفسه بركات ابن رزق الدريدى ؟ .. يا للعجب ..

قال سرحان وهو خجلان :

– إذن كانت شيحا تستجيب لنداء قلبها ، نداء الدم فى عروقها ..

إنتفض رزق وقد فاضت مشاعره حتى البكاء ..

– أنا لا أكاد أصدق ، لا .. كل هذا هراء .. وكذب وافتراء .. هل يعنى ذلك أننى كنت سأقتل ابنى .. ؟ وكاد هو أن يقتلنى ... ؟ وماذا سأفعل عندما يطلبنى الآن للقتال .. هل سأخذل بنى هلال .. أم أقتل ابنى يا رجال ؟!

هز الأمير حازم رأسه فى حيرة وقال :

– الحق معك يارزق ، الأمر صعب .. ولكن عندى لك فكرة ستحسم الموقف تماماً .. إسمع ستخرج إليه .. وعندما تلتقيان .. ما عليك إلا أن تقول له ..

ولم يسمع أحد ما قاله بسبب صياح بركات الذى ظهر يصول ويجول فوق فرسه بالقرب منهم متحدياً أن يخرج إليه أحدهم :

– يا بنى هلال .. هل انقرض فيكم الرجال .. أخرج يارزق لتمحو عار الأمس ، ولا تتجبر على النساء والصبايا هيا .. ولا تطمع يا سبب الرزايا فى كرم أكثر من ذلك . لقد أبقيت على حياتك بالأمس أكراماً لتلك الحسناء الهلالية .. لكن اليوم أمر آخر .. هيا ..

إندفع (رزق) نحوه كالسهم ممتطياً حصانه بعد أنهى حديثه مع الأمير حازم .. وأخذ كل منهما يدور حول الآخر فى تحد .. وحين اندفع بركات نحو رزق أوقفه هذا بإشارة من يده وقال :

- إرجع يافتى وارسل من يقاتل الرجال .. فإنى لن أقاتل ولداً .. لا يعرف من هو أبوه !

صدمت الكلمات بركات لوهلة ، ثم استعاد نفسه فصاح غضباً :

– ألم تعد تعرفنى يارزق ؟! ألم تعد تعرف ابن الملك الزحلان الذى وهبك الحياة بالأمس ..

قهقه رزق بصوت عال .. وقال متمادياً فى السخرية :

– ابن من ؟ .. لا أيها الغر الأحمق الذى لا يعرف نسبه .. لقد ضللوك .. إنك لا تعرف من هو أبوك .. إذهب وأسأل أمك خضرة فقد تكون لديها بقية من شجاعة لتخبرك بحقيقة أمرك .. هيا .. فإذا عرفت وتاكدت ، عد إلينا وسوف يكون سيفى فى شرف انتظارك .. هيا ..

ولوى رزق عنق فرسه مثلما اتفق معه الأمير حازم تاركًا بركات يتخبط فى الحيرة .. بينما ارتفعت ضحكات ساخرة وصيحات مستهزأة من بين صفوف بنى هلال تحاصرة .. وتسود الدنيا فى عينيه .. وأخذ يسأل نفسه :

- أهذا صحيح ؟ .. إذن من أكون ؟ إذا كان الزحلان قد رباني فقط ، فمن أين جاءت بي خضرة ؟ هي لن تخبرني طبعاً بالحقيقة .. إذا كانت قد أخفتها عني كل هذه السنين؟ .. لا . . هي لن تفعل !! ولكن يجب علي أن أجد طريقة ، كي تعترف أمي بالحقيقة !!

* * *

قال الراوي ..

عاد بركات إلى معسكر بني الزحلان وهو كسير القلب سقيم الوجدان .. مصمم على معرفة الحقيقة ، فأسر في نفسه فكرة دقيقة .. وهو يدور حول نفسه كالنمر الجريح في خيمته .. لا يجرؤ أحد ممن معه على مقاطعة صمته أو حركته !..

وفجأة ، أسرع إلى أحد الأركان ، حيث الخرج الكبير الذي يحفظ فيه مواد الكيميا ، فخلط في كأس صغير بضعة أشياء من بضعة قوارير .. ما أن شربها حتى سقط جثة هامدة فوق السرير !!

وفوجئ الحاضرون بما حدث .. فأسرعوا فزعين إليه فوجدوه فاقد النفس متوقف النبض فتعالى الصياح من كل جانب ، لقد قتل بركات نفسه دون سلاح .. وسرى الخبر سريان النار في الهشيم .. حتى وصل إلى خضرا ، فانفتحت أمامها أبواب الجحيم .. وشهقت شهقة عميقة وأغمضت عينها ثم سقطت مغشياً عليها !

ولما أفاقت ، قصوا عليها ما حدث .. منذ عاد بركات من لقائه بـ رزق كسير الجناح مهزوماً مشوش الوجدان لأن رزق أخبره أمام الجميع إنه ليس ابن الزحلان ، وإنه لن يقاتل ولداً لا يعرف من هو أبوه .. فعزت عليه نفسه ، وتناول سائلاً سلبه الحياة .. لأنه لا يعرف أباه .. صاحت خضرا وهي تضرب صدرها بقبضتيها :

- أهكذا يا رزق ؟ .. هكذا ؟ .. تقتل ابنك يا رزق ؟

واحتضنت جسد ابنها وهي تنوح :

نعم ياحبيب القلب يابركات ، رزق هو أبوك .. رفضك صغيراً وطلقني وطردني .. وها هو يحرمني منك كبيراً فأثكلني .. قم يابركات ، رزق هو أبوك يا بني ...

ووسط دهشة الجميع .. فتح بركات عينيه وقال :

– لا تبكي يا أمي فابنك حي ما يزال !!

:شهق الحضور وكاد أن يغشى على خضرة مرة أخرى .. لكن بركات أسرع إليها .. وتلقاها بين ذراعيه .. وأخبرها بسر الشراب الذي شربه لتظن أنه سقط ميتًا .. والذي صنعه بيده منوماً مؤقتًا !

وقال :

– الآن تتضح الحقيقة يا أمي ولكنها لن تمنع القتال .. صاحت خضرة :

– لا تقتل أباك يابركات !!

ربت بركات على كتفيها وهو يقبل يديها وقال :

– إطمئني يا ابنة الشريف .. لن أقتله .. ولكن لابد أن أجعله يدفع ثمن جرائمه في حقك وحق أبي الملك الزحلان .. لابد أن يعترف بذنبه وأن يخرج الشرور التي بقلبه .. ولن أكون بركات إن لم أرد لك كرامتك يا أشرف الأمهات .. أما أنا .. فسأظل كما أنا .. ابنًا للملك الذي رباني .. ولن أكون ملكًا لمن رماني وللمجهول ألقاني ...

سوف أحضره حيًا إليك وإلى أبي ليعتذر إليكما .. ولن أقتله من أجل خاطر أختي شيحا ذات الصوت الجميل الذي نجاني .. !

سيوف الأقارب

لا تقتل أباك يا ولدى !

اندفع بركات غاضبًا يريد الانتقام ، بعد أن عرف السر الذى أخفته أمه طوال هذه السنين ، قالت خضرة الشريفة :

– يا ولدى .. لا تترك الغضب يعمى عينيك عن الحقيقة ، ولا تنسى أن رزق هو والدك الحقيقى !

التفت بركات ناحيتها فى عصبية ، مستنكرًا قولها .. وهو يحاول إخفاء غضبه :

– والدى يا أمى العزيزة هو الملك الزحلان ، هو آواك وآوانى .. بعد أن رماك رزق ورمانى لذئاب الصحراء ، هنا فى هذا البيت كبرت برعاية الزحلان وحبه ، وتأدبت بنصائحه وعرفت عنه الصواب والخطأ .. فى حجره لعبت وعلى صدره حبوت ونمت صغيرًا .. وعرفت الحنان والهناء والأمان طفلاً .. والمرح والفرح صبيًا ، والشجاعة والفروسية شابًا .. لا أعرف أبًا لى سواه .

ملأ الحزن عيون خضرة بالدموع وقالت وهى تربت على كتف ابنها ، الذى يرتجف من الانفعال :

– يا بنى كل ما قلته صحيح ولكنك لن تستطيع مهما أنكرت ، أن تتخلص من الدم الذى يجرى فى عروقك .. يا ولدى .. هذا قدرك .. أبوك هو الأمير رزق الهلالى كما أننى أنا خضرة بنت الشريف أمك .. وأنت مهما حدث هلالى من بنى هلال .. وإليهم تنتمى ..

صاح بركات محتجاً :

– كيف تقولين هذا يا أمي .. بنو هلال هم الذين أهانوك وطردوك إلى الصحراء بلا رحمة أو شفقة ..

نظرت خضرة في عينيه محاولة الابتسام ، وقالت فى محاولة أخيرة لجعله يتراجع :

– الآن .. عرفوا خطأهم ..

– جريمتهم !

– أوافقك .. عرفوا جريمتهم الآن .. وأستطيع أن أوكد لك أنهم تعمدوا أن يسألوك عن أبيك كي تعرف الحقيقة التي يريدون الاعتراف بها .. والاعتذار عنها .. طالبين السماح والمغفرة ..

وضع بركات كفه فوق يد أمه التي كانت ما تزال فوق كتفه تهدئ من عصبيته :

– الجريمة لها عقاب .. ولن أسامحهم على ما فعلوه بك .. حتى ولو سامحتهم عما حدث لى .. والآن مهما كانت نواياهم فقد هاجموا أرض أبى .. ويريدون النجاة بجريمتهم الجديدة .. بجرحهم أبى ومحاولتهم قتله .. ولكنى لن أتركهم يفلتون أولئك الذين طردوك وطردونى رضيعاً ضعيفاً إلى الفلاة والوحوش . تريدين أن يجازوا على قسوتهم بالرحمة ؟ وعلى نكرانهم صلة الدم بالمغفرة .. ؟ لا يا أمى أنها خدعة للنجاة بأفعالهم وعذرهم ..

ولما وجدت خضرة إصراره على الخروج محاولاً الإفلات من يدها .. نظرت فى عينيه بعد أن جذبته إليها وقالت فى إصرار :

– لن أتركك تخرج إليهم إلا إذا وعدتنى ألا تؤذى والدك يا ولدى .. إنها ستكون جريمة بشعة وعاراً لا يفارقك أبد الدهر إن قتلته .. ستكون أبشع وأشد هولاً من فعلته القديمة القاسية .. لن تفعل .. عدنى .. وإلا فلن تخرج للميدان إلا على جثتى ..

أراد بركات أن يرد متجنبًا سهام نظراتها ، لكنها لم تعطه الفرصة ، وظلت تسلطها عليه وتحملق مباشرة فى عينيه المبللتين بالدموع :

- عدنى يابركات .. هيا .. عدنى !

مال برأسه مستسلماً متجنبًا نظراتها المتحدية وقال :

- أعدك يا أمى .. أعدك .. ولكنى سأحضره أسيراً مقيداً ليطلب السماح منك .. ومن أبى الملك الزحلان الذى مازال جرحه يهدد حياته الغالية .. وللملك أن يفعل به ما يشاء ... ولاتحاولى منعى من ذلك فأنا مصمم على أن يكفر عن ذنبه نحوك .. وعدوانه على الملك الزحلان الذى هو رغم كل شىء .. أبى ..

مدت خضرة ذراعيها واحتضنته فى حنان وهى تقول :

- مهما حدث يابنى ... ومهما يمكن أن يحدث .. فلا تنسى أن فى عروقك تجرى دماء الأمير رزق وأنك هلالى يابركات ..

وأطلقت سراحه فانفلت كالسهم خارجًا من الخيمة ليقفز فوق فرسه صارخًا بأصحابه أن هيا إلى القتال يا رجال !!

* * *

قتال .. الأحبة!!

قال الراوى ..

- اندفع بركات على حصانه شاهراً الحسام .. وهو يصيح صيحات الحرب وينشد ألحان الانتقام ..

يا رزق لا تهـــرب | قد جاءك الفرسان
اخــرج إلى الحــرب | هيـــا إلى الميدان
بركـــات جـــاء إليك | يجـــزيك صنع يديك
نار على عـــينيك | تكشف لنا مـــا كـــان !

وانقض من ورائه فرسان بنى زحلان كالريح العاصف ، يدفعهم للانتقام من رزق ما أصاب ملكهم على يديه .. ساعتها فوجئ بنو هلال بالهجوم الخاطف فأسرعوا مذعورين واستطاع البعض الوصول إلى سلاحه .. بينما سقط الكثيرون قبل أن يتمكنوا من الوصول للخيول ..

كان الخبر الذى وصلهم ، أن بركات قد عرف أنه ينتمى إليهم .. وتوقعوا أن يمتنع عن قتالهم .. ولذا اطمئنوا وفرحوا بهذا الظن السعيد .. حتى فوجئوا بالهجوم الجديد ، فأسرعوا يحتمون بالدروع والزرد الحديد ، لكن هيهات .. هيهات .. كان الوقت قد فات .. وأعمل فيهم بركات وأصحابه السيوف فقتلوا منهم قبل أن يفيقوا المئات وجرحوا الألوف !!!.

وهنا خرج الأمير سرحان حيران ، لا يكاد يصدق ما يرى .. فامتطى الحصان بلا سلاح يريد أن يمنع ما جرى .. كان يظن أن بركات سيلاقيه بالأحضان .. وسيوقف عندما يراه الضرب والطعان ..

توقف بركات للحظة يتأمل سرحان المقبل عليه .. لا سيف فى يديه أو زرد عليه .. فصاح به ساخراً :

- هل أنت ذاهب إلى العيد .. أيها الرعديد !

تلعثم سرحان واخرسته المفاجأة وقال :

- يا ولدى ما تفعله لا يرضاه الرحمن ذو الجلال .. فكيف تستبيح دماء أهلك بنى هلال ؟!

ضحك بركات وهو يخفي غيظه وقال :

- الآن أصبحت من بني هلال ، افرحي يا شريفة ، وتقولها أنت بالذات من بين الرجال .. ومن كنت أنا عندما كنت فى سن الأطفال .. هه ؟ .. ألم تتهم أمى بالخيانة ياسرحان ؟ أم أنك نسيت ما كان يا جبان ؟

صاح سرحان وهو يحاول تجنب وخزات بركات له ولحصانه بالحربة من اليمين ومن الشمال .. وقال :

- نحن الآن رجال .. فلا تستمر فى فعال العيال .. آه ... الآن أنت بطل من الأبطال ، وسيد .. آه من سادة بنى هلال !

صاح بركات وهو يخزه وخزة موجعة :

- أخرس يا دون .. واذهب وارتد سلاحك واستعد للنزال يا بطال ..

ثم هجم عليه هجمة مفتعلة وهو يخزه فى جنبه وخزة غير محتملة .. جعلته ينتفض من الألم وجعلت حصانه يقفز فى الهواء ملقيًا به على الغبراء .. ولم يتركه بركات بل هجم عليه مهوشًا .. فانطلق سرحان صارخًا مهرولاً .. مشوشًا .. بطريقة جعلت كل من رآه .. يضحك لمرآة .. إذ مضى يتعثر فى سراويله .. متفاديًا بصعوبة وخزات بركات ، مختبئًا منها خلف الرجال .. متعثرًا فى الأحجار والحبال وبركات لا يريد أن يتركه .. بل ظل خلفه هنا وهناك يهدم فوق رأسه خيمة بضربة .. أو يدحرجه فوق الرمال بالحربة ..

وسرحان لا يكف عن الصياح والصراخ .. ملوحًا بيديه الخاليتين من السلاح ..

ورأى الأمير رزق ذلك المنظر الساخر ، فغضب غضبًا شديدًا من ابنه، وثار واندفع ليحول بين سرحان وبركات كالإعصار ..

وهنا صاح ابنه في استبشار :

– ها قد خرجت أخيراً من مخبئك لمصيرك يا جبار .

فهجم رزق عليه وقد قرر إنهاء هذا الموقف المهين الذى لم يعجبه .. وقرر أن يكون الوالد الذى يقوم ابنه ويؤدبه .. والتحم الاثنان فى قتال مرير .. اصطدم الأب مع الأبن الصغير .. وكان هذا هو المأزق الخطير .. الأب ضد الابن ...

وهنا توقف الجميع عن القتال .. وقد خفقت قلوب الرجال .. من بني زحلان ومن بنى هلال ، كلهم فزع ومشفق بما يكون :

سيف لسيف قتال الابن والوالد ..

يالهف قلبى عليه الباغى والجاحد ..

من الذى سوف يحمل ذنب فعلته ..

الله فوق الجميع وفى السما شاهد !

* * *

مناوشات ومناقشات !!

طال القتال بين البطلين .. رزق الهلالي .. فارس بن هلال الجبار وبركات ابنه الغالى .. المنتسب للملك زحلان ، والفارس الذى لا يشق له غبار ..

كان رزق أقوى كثيراً من بركات .. لكنه كان يقاتل بقلب الوالد الذى يخفف حدة الهجمات !

وكان بركات أكثر تهوراً وخفة من رزق لكنه كان يهاجم بعاطفة الابن الذى يجعل الضربات تخيب فلا تصيب أباه فى ذكاء وصدق !!

حتى قال الأب :

– يا بنى أما آن الأوان أن نستمع لصوت العقل .. وأن نكف عن هذا القتال السخيف .. أنا لن أقتل ولدى !

قال بركات وهو يشدد من هجماته :

– ولكنك ألقيت به إلى الفلاة طفلاً رضيعًا أيها الفارس الشريف ..

اغرورقت عينا رزق بالدموع وقال وهو يتفادى ضربات الرمح القاتل :

– أعترف أن ذلك كان خطأ كبيراً .. من بنى هلال جميعهم ، فقد ملأ بعضهم قلبى بالكره لك .. وحاصروا أذنى بالتجنى على أم ابنى ..

غامت عينا بركات بدموع الغضب :

– لماذا يصدق العاقل ذو الحسب والنسب قول الجهال وعديمى الأدب ..

هنا صاح به رزق صيحة والد يأمر ابنه فى غضب ليطاع :

– كف عن الضرب .. واستمع لى ، فإن عندى ما يقال بين الرجال ..

وتوقف بركات على الفور كطفل كف عن تمرده أمام غضب والده :

– وماذا عندك لتقول وقد طردت أمى وصدقت الكذب الذى قيل عن الشريفة ابنه الشريف .. وصدقت ذلك القول السخيف ؟

قال رزق والحنان يملأ قلبه ويرقق صوته :

– الجهل يابنى .. قالوا أنها اشتهت أن يكون ابنها أسود كالغراب الذى شاهدته وهى حامل ..

زعق بركات :

– خرافات ... كيف تصدق هذا القول الجاهل .

فتنهد رزق وقال :

– يا ليتني صدقته .. فما كنت لأطردها أو أتنكر لك لو صدقته . أنا لا أصدق الخرافات .. ولذلك لم يعطني لونك الأسود أى فرصة لتبين الحقيقة ..

هنا برقت عينا بركات كشعلتين مضيئتين وسط ليل حالك .. ولمعت أسنانه كضياء بدر التمام فى ليلة شديدة الظلام .. وكف لحظة عن الكلام ثم صاح ..

– أتعترض على قضاء الله ؟ ... وبماذا يضيرك لونى ؟ ألم يكن بين أجدادك يومًا جد أسمر اللون أو جدة ؟ ألم يكن بين آباء خضرة أو أسلافها حبشى أو حبشية ؟ .. هه ؟ ! من أين يأتيك هذا اليقين .. يا ابن الكرام .. لقد نسيت دعوة النبى عليه الصلاة والسلام ...

وتجاهلت قدرة رب الأنام .. الذى يعلم ما فى الأرحام ..

واندفع أشد غضبًا نحو والده وكأنه يريد أن يعاقبه .. لولا أن الوالد الفارس تجنب الضربة وتجنبه .. كان موقفًا ما أصعبه .. صد رزق هجمته المباغتة بهجوم أشد. وعادا للاصطدام والقتال بقوة فاقت كل حد .

وكان القوم من بنى هلال ومن الزحلان ينصتون لما دار من كلام وقد زاد أملهم فى السلام .. ولكن الفرح لا يدوم، فقد وجه بركات ضربة ساحقة ماحقة تلقاها رزق بمهارة فائقة .. فسقط السيف البتار فوق الدرع وانزلق على رقبة الحصان .. فسقط جثة هامدة .. ووقع رزق إلى جواره بلا سلاح ... فانقض بركات وصاح صيحة شلت المراقبين وهو يحمل والده مقيداً فوق حصانه .. منطلقًا به وسط ذهول الجميع من بنى زحلان ومن بنى هلال نحو خيام الملك الزحلان .. منهيًا القتال !

* * *

من بركات إلى سلامة

قال الراوى ..

بعد أن تغلب بركات على رزق وتمكن من أسره ، وغلبه المفاجأة على أمره ..

قال " بنو هلال " :

– كنا نظن أن رزق أفرس بنى هلال ، ولكن بركات تغلب عليه .. وبانت له علامة ، فليكن اسمه من الآن بين الرجال ..... " سلامة " !

قال الراوى ..

وهكذا أصبح "بركات" .. "سلامة" !!

فمتى يصبح من "بنى هلال" ، ومتى يصير " أبو زيد " ؟ متى يصير " الهلالى "؟!

ثم أنشد يقول :

هذا ستكشفه الليالى ..

فغداً يصير هو الهلالى

بركات على الأبطال كان ..

أبو زيد يزيد على الرجال ..

* * *

قال الراوى ..

أما ما كان من أمر الأمير رزق فقد حمله ولده أمامه على الحصان أسيراً ..

ومضى به كالبرق حتى صار أمام خيمة أمه فأنزله .. ودفعه إلى الأمام . وحين شاهدته أمه يدفع والده نهرته قائلة :

- عامل أباك باحترام يا ولد ...

وأسكتته حين حاول الكلام فسكت فى كمد. وهنا جثا رزق على ركبتيه أمام خضرة وقال :

- سامحينى يا ابنة " الشريف " .. ظلمتك وظلمت ولدى .. بل ظلمت نفسى أكثر ..

بكت خضرة ومدت يدها إليه .. لترفعه من كبوته واقفاً على قدميه ..

ونظرت بقوة فى عينيه .. وقالت :

- الظلم يارزق ساعة .. والحق والصدق أقوى إلى يوم الساعة ..

وهنا بكى رزق وحاول أن يحتضن بركات لكنه امتنع عليه ... ودفعه بعيداً بذراعه .

قالت خضرة :

- رفقاً بأبيك يابركات .. واستجب لنداء الدم فى عروقك ..

ساعتها أخفى بركات ضعفه بغضب شديد . مخفياً بصعوبة ، الدموع التى تساقطت من عينيه .. وجذب رزق بقسوة ودفعه أمامه ... وهو يصيح :

- ليس هذا أبى .. فأنا لم أكن له ابناً فى يوم من الأيام .. أبى هو الملك الزحلان .. الذى لم أر منه يوماً أى فعل قبيح ..

ووقفت خضرة تراقبه فى صمت وهو يدفع أمامه بأبيه الأسير .. نحو خيمة أبيه الراقد جريحاً جرح الموت فوق السرير !!

* * *

إن غداً لناظره قريب !

وقف الأمير رزق مقيداً أمام سرير الملك الجريح الذى كان يصارع الموت فى جلد وصبر ... وتكلم بركات مخفياً حزنه فى إحترام :

– أبى الحبيب .. جئت إليك بمن تسبب فى الجرح القاتل .. كى تقتص منه وليلقى جزاءه على فعلته الغادرة !

ابتسم الملك الزحلان ابتسامة ضعيفة ... ورفع رأسه بصعوبة ونظر إلى بركات وهو يهز رأسه ملاحظًا الشبه الغريب بين الأب وابنه الحبيب .. رغم اختلاف لون البشرة وقال :

– إنه والدك يابركات .. لقد سامحته من أجل خاطرك .. فسامحه يا ولدى .. رزق أمير شجاع .. فك قيوده يا فتى .. لا يصح أن يقف مقيداً هيا .. واذهب واحضر حلتى الملوكية الموشاة بالذهب .. ذات الأزرار العشرة .. لأخلعها عليه تكريماً وترحيباً به .. هيا يا ولدى .. واختر من الخيل أكرمها .. ودعه حراً يذهب حيث يشاء .. وكما يريد .. ولا تعامله كالعبيد .. فهو ذو بأس شديد .. آه .. لقد آلمتنى كثيراً يارزق ولكننى اغفر لك .. ولنبدأ من جديد ..

نظر بركات غير مصدق .. ووقف فى حيرة وتردد ، كأنه لا يفهم قول الملك الزحلان ولا يعرف ماذا يريد .. لكن نظرة الملك كانت قاطعة .. وأشار إليه ألا ينطق بكلمة أو يزيد .. ففك قيود والده .. الذى أسرع نحو سرير الزحلان وانحنى عليه مقبلاً جبينه ويديه !! .. وجاءت خضرة فى اللحظة التى دخل فيها بركات بحلة الزحلان الملوكية ذات الأزرار العشرة اللؤلؤية .. ليخلعها على الأمير رزق هدية وعطية .. واعتدل الملك الزحلان وقال :

– الآن اجتمع شمل أسرتك يارزق ، وها هو ولدك يعود إليك بعد كل هذه السنوات بطلاً بين الأبطال وفارساً تخشاه الفرسان فى كل مكان ..

لكن بركات اندفع نحو الملك الزحلان صائحاً وقد تملكه الغضب :

– لا .. يا أبى .. ليس لى أب سواك يا مليكى ووالدى وولى نعمتى .. لن أترك هذا البيت مهما حدث ... فانى انتمى إليه .. لأمى الحق أن تسامح زوجها لأنه زوجها ، ولها أن تعود إليه لأنها إن شاءت تنتمى إليه .. أما أنا .. فأنا أنتمى إلى هنا .. فى هذا البيت تربيت .. وها هما أخوى .. نعيم ومنعم .. أنتم طفولتى وصباى .. أنا ابن الملك الزحلان ، مهما كان ، إن الدم وحده لا يكفى الآن لينسبنى لإنسان غريب ...

بكت خضرة .. وتألم رزق وعض قلبه الندم .. وكان الجميع وقوفًا كأن على رؤوسهم الطير .. وبركات يتقدم من الملك الزحلان .. ليجلس إلى جانبه .. وهو ينظر فى ثبات لخضرة ولرزق ويقول :

– الدم وحده لا يكفى لتحديد الحبيب من الغريب .. ولكن غداً .. من يدرى ؟ .. ما سيحدث من الأعاجيب .. إن غداً لناظرة قريب !

* * *

آخر حدود الكرم

– يا للكارثة ..

كانت هذه صيحة حسن بن سرحان بعد أن عبر هو وأصحابه متنكرين مضارب العبيد ورعاة الإبل .. والجنود ... وواجهوا الأرض التي يبست حشائشها لسنين مضت .. لم يعلق أي واحد منهم .. فقد كان كل منهم يدرك أبعاد المصيبة التي حلت بوادي العباس منذ سنوات فحولته من جنة فيحاء .. نضرة الأشجار سامقة النخل وارفة الظلال .. إلى أرض خراب جفت ينابيعها ويبست أشجارها .. وصارت نخلاتها أعجازًا خاويه ..

كانت فكرة الرحيل تلح عليهم جميعًا ..

وكان الجميع يقاوم الاقتناع بها .. دون أن يجد سببًا لذلك بعد أن عم اليأس ومات الأمل في تغيير الوضع ، أو سقوط المطر بما يكفي لعودة الحياة إلى الأرض اليابسة ..

* * *

كان مجلس الأمير حسن بن سرحان قد وصل إلى القرار الأخير بالرحيل .. عندما دخل عليهم عديد من شيوخ القبائل ورؤساء البطون ، وقد انعقد عزمهم جميعًا على الرحيل إلى حيث ينقذون مابقي من حياة وأطفال .. وسيطر الموقف اليائس على الجميع ، مع أنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى تحديد المكان الذي إليه يقصدون ..

صرف الأمير حسن الشيوخ والرجال واعدا أياهم تقرير الأمر في الصباح..

ولم يبق عنده سوى الأمير أبو زيد والأمير دياب بن غانم ، والقاضي بدير بن غانم ... فالتفت إليهم وقال :

– يعز على مثلكم جميعًا أن نغادر هذه الأرض ولكن للضرورة أحكام .. وعلى الحكام أن يضعوا مصلحة الرعية نصب أعينهم وإلا ما استحقوا ما هم فيه من مكانه .. فهى أمانة وأى أمانه ..

قال أبو زيد :

– صدقت يا ابن سرحان ولكن لا يجب أن نخاطر أو نغادر ، دون أن نعرف إلى أين المسير ، وكيف يكون المصير .. وإلا لكنا كمن يسوق أهله للانتحار والبوار ..

قال حسن :

– هذا ما اجتمعنا من أجله .. ولكنى أريد أن أتأكد أننا قد اتخذنا القرار السليم .. فهيا .. من يريد أن يأتى معى فأهلاً .. لقد قررت التنكر فى ثياب شعراء غرباء لأطوف بمضارب بنى هلال لأعرف أحوالهم بنفسى .. حتى لا يكون القرار نابعًا من يأسى وعجزى .. وإنما استجابة لرغبة الجميع ...

إستحسن الثلاثة رأيه وأيدوه .. وفعلوا مثله فتنكروا لساعتهم فى ثياب الشعراء ، وخرجوا تحت ستر الظلام يطوفون بالخيام .. ويرقبون الناس ويتلمسون أحوالهم فى الصحو والمنام ..

وها قد مضت عليهم ثلاثة أيام وثلاث ليال .. شاهدوا خلالها من مظاهر الفقر والحاجة ما لا يصدقه عقل ..

واستمعوا لحديث الجوعى والصرعى .. والعطاش .. ولمسوا بأيديهم ما آل إليه الحال .. تلك التى دفعت الأمير حسن .. أن يصرخ فى ضيق بعد أن خرجوا من مضارب رعاة الغنم والجمال ..

– يا للكارثة ..

* * *

قال الراوى ..

سار الأربعة الأمراء المتنكرين فى ثياب الشعراء الغرباء .. دون أن ينطق أيهم بكلمة أو حرف . وقد عصر قلوبهم - وهم الفرسان الشجعان - أبشع أنواع الخوف .. الخوف من المستقبل والخوف على الأطفال .. لقد ذبح الناس كل ما يمكن الاستغناء عنه من الغنم والجمال . وباع معظم الناس كل ما يمكن بيعه لقاء مال .. ولما طال المسير فى صمت .. وطال عليهم الوقت .. وكل منهم يتشاغل عن الآخرين بحزنه .. ويخفى عنهم همه وشجنه ..

لاحت من بعيد نار خافته .. لكنها كانت كافيه لتكون لأبصارهم لافته .. فوجد كل منهم فيها حجة ليبدأ الحديث فقالوا كلهم فى وقت واحد :

- هيا لنعرف أحوال أصحاب هذه النار .. ولنعود قبل أن يدهمنا النار ..

صلوا على النبى المختار .. الذى اخضرت تحت قدمه الأرض البوار .. كانت تلك مضارب الأمير مفرج بن نصير .. الذى كان جالسًا أمام خيمته يشكو للسماء مثلهم شديد حاجته وقله حيلته .. فقد ذهبت المجاعة بكل ماليه من أبل ، إلا ما يكفيهم للرحيل .. ولعدة أيام مضت لم يعد لديهم طحين ولا عجين ..

ولأنه لم يعد يطيق سماع آهات الشكوى والأنين .. خرج يستروح نسيم الليل ويفضى بشكواه .. للإله الرحيم .. وليخفى عن أهل بيته ما يراوده من حزن يجعل الدموع تطفر من عينيه .. وهو الفارس الذى كانت مضاربه مقصد المحرومين والمحتاجين ..

ارتعشت شفتاه عندما لاح له خيال الراكبين الأربعة يقتربون فى الظلام .. وقال :

- اللهم إجعله خير .. ولا تفضحنا أمام الغرباء ..

ولما تأكد أنهم ليسوا من أهل الحى ازداد اضطرابه .. وعذابه .. وكادت عينه تذرفان الدموع .. عندما حيوه بالسلام .. وقالوا :

- أيها السيد الكريم .. هل لك أن تقبلنا ضيوفًا لليلة واحده .. فقد طالت بنا الطريق .. واجهدنا السفر ..

قفز الأمير مفرج وهو يفعل المستحيل ليدارى اضطرابه ، مرحبًا .. هاشًا .. وهو يدعو الله ألا يلاحظوا فقر حاله .. وسوء أحواله ..

- يا أهلا بكم وسهلاً أيها الضيوف .. نزلتم أهلا وحللتم سهلا .. هذه داركم ولكم كل الفضل والمعروف ..

ونزل الأمراء المتنكرين فى ثياب الشعراء الغرباء عن رواحلهم .. ودخلوا الخيمة حتى دعاهم للجلوس وهو يدارى اضطرابه .. ويسرع إلى زوجته وهو يدعو الله ألا يلاحظ الضيوف مابه ..

وفوجئت زوجته بهيّ التى كانت من أجمل نساء الحى بزوجها يطلب منها أن تجهز عشاء لأربعة .. وهو يعرف تماماً أنهم منذ يومين لم يذوقوا شيئًا من الطعام .. وأنهم ذبحوا وأكلوا كل مالديهم من أنعام ..

فصاح بها وقد نسى حذره :

- اذهبى على الفور إلى أبيك شيبان واحضرى ما تجدينه لديهم من طعام .. هيا فقد قصدنا هؤلاء دون العربان .. وجاءونا من أبعد مكان .. هيا .. هيا ..

ودفعها بلهفة إلى الذهاب .. وعاد ليرحب بضيوفه الذين لم يخف عليهم ما هو عليه من اضطراب .. بعد أن سمعوا سؤال زوجته .. وسمعوا ما رد به من جواب ..

لكنهم لم يظهروا شيئًا .. وأخذوا يضربون معه فى دروب الأحاديث والحكايات ليخففوا عنه مابه من عذاب ..

ثم رأوه ، وهو يقوم فى لهفه ليجيب نداء زوجته ، التى عادت من عند أبيها .. ولم تستطع رغم ما حاولته من همس .. إن تخفى ما عادت به من يأس .. لكنهم حبسوا أنفاسهم عندما سمعوه يحاول أن يكتم آهات آلمه .. وهو يستمع إليها تطلب منه أن

يخرج فى الحـال .. ليبيع ابنته لأى من يريد أن يشترى جارية حسناء .. لإطعام ضيوفه .. فليس لديهم شئ آخر .. وأنها سوف تجهزها له فى ثوان ...

لكن الفتاة وكان اسمها " الثريا " .. وكانت تستمع لما يجرى فى ألم وحزن منذ وصل الضيوف .. ورأت ما هو عليه حال أبيها وأمها من اضطراب وكرب .. وتصورت مدى فضيحتهم بين العرب .. لأنهم لم يستطعوا أن يضيفوا أربعة شعراء غرباء نزلوا عليهم ذات ليله .. فقالت ..

– أنا جاهزه .. ياأبى .. هيا بنا ..

* * *

لم يعد الأمير مفرج إلى ضيوفه .. بل انطلق على الفور مصطحبًا ابنته ليدور بها على شيوخ القبائل .. وأهل الفضل . وهو يدلل عليها .. وينادى :

– من يشترى بنتى الثريا بعشاء أربعة ضيوف ...

وكان أبو زيد قد أسرع فى خفة يتبعه خفية .. ليرى ما الذى ستكون عليه نهاية هذا الحادث العجيب والأمر الغريب . وكانت السيدة بهئ زوجة الأمير مفرج .. تحدث ضيوفها وتسامرهم من وراء ستار وتهون عليهم الانتظار متعللة إليهم أن أمرًا عاجلاً قد استدعى أن يخرج الأمير لأمر عاجل وسيعود بمجرد أن تنتهى هى من إعداد الطعام ..

وفجأة دخل أبو زيد وهو يلهث وهمس فى أذن الأمير حسن بشئ جعله يتسلل بسرعة وخفه خارجًا دون أن ينبث بكلمه حتى لا يلفت أنظار صاحبة الدار .. وأسكت أبو زيد رفيقيه الذين دهشا لما يحدث .. وهم يرون الأمير حسن يمتطى حصانه ويسابق الريح ويختفى وسط ظلام الليل الدامس .. همس لهما أبو زيد بإجابة سؤالهما قائلاً :

– أن الأمير مفرج سيتوجه إلى منازل الأمير حسن ليبيعه الثريا .. بعد أن يئس من بيعها لغيره .. الجميع كانوا مذهولين لجمالها وحسنها .. ولكن الجميع يقولون .. وإذا اشتريناها فماذا نطعمها ونسقيها ؟..

أخذ القاضي بدير يبسمل ويحوقل .. وهو يقول :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .... اللعنة عادت تلاحق بنى هلال ... هذا ما كتب علينا وما قدر .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. مكتوب أن نغترب حتى فى ديارنا .. وأن تلحق بنا اللعنة .. الأرض شربت من الدم ما جعلها تقسو وتتحجر .. ماتت القلوب فمات الزرع الأخضر ..

وبينما هم فى الحديث . . إذ دخل عليهم الأمير حسن وهو يلهث فجلس يلتقط أنفاسه والكل يحاول أن يعرف ما جرى .. وهو يهدئ من لهفتهم بالإشارة حتى لا يسمع أهل الدار ما سيقول .. وكانت السيدة بهىّ تروّح عنهم بالحديث حتى لا يحسون بغياب الأمير مفرج ولا بتأخر العشاء . ولما تركتهم لتستقبل زوجها الذى عاد فرحاً مجبور الخاطر على ما يبدو هذه المرة .. فانشغلت به عنهم ..

حكى لهم الأمير حسن ما جرى منذ خروجه على عجل .. وكيف حمد الله أنه وصل قبل وصول الأمير مفرج .. فبدل ثيابه قبيل دخوله عليه بلحظات .. وكيف بكى عندما رآه يدلل على ابنته الجميلة الثريا .. ويرجوه أن يشتريها لقاء عشاء أربعة شعراء ..

وحكى لهم كيف طيب خاطره ورده مكرماً مع ابنته ، بعد أن أمر له ببعض الدقيق والسمن من بيت المال .. وكيف أسرع ليستبدل ثيابه مرة أخرى .. ويلهب ظهر فرسه حتى يصل قبل عودته ..

وأخذ الأمراء (الشعراء) الأربعة يتبادلون حديث الدهشة والعجب حول هذه القلوب التى من الذهب .. وهم يتابعون ما صار إليه الحال . إذ انقلبت من الصمت والاضطراب المثير للألم إلى بهجة وفرحة .. وعمت المكان حركة مليئة بالحيويه إذ قامتا

بهيّ والثريا .. فعجنا وخبزا واشعلا النار ، وفاحت ريحة الخبيز تبشر بتحقيق الأمل ..

ودخل الأمير مفرج على ضيوفه هاشا باشا يضحك مرحبا .. فقد سترها الله معه ، ولم يفضحه ، وسيتعشى الشعراء الغرباء .. ولن يقولوا أنهم قصدوا ذات ليلة مفرج بن نصير .. وباتوا من غير عشاء ..

* * *

لم يجد الأمراء المتخفين فى ثياب الشعراء شيئًا يقولونه أثناء طريق العودة .. فقد كان الأمر أكبر من أن تعبر عنه الكلمات .. لكن الأمير حسن التفت إلى أبو زيد وقال :

– يا سلامة .. لقد فاجئتنى حين طلبت أن تأخذ معك أولادى الثلاثة "يحيى" و"مرعي" و"يونس" لكشف الأرض والطريق وريادته .. كنت أعرف أنك تضع العقدة فى المنشار .. وكنت سأرفض .. ولكنى الآن خجل من نفسى .. فها هو الرجل كان سيبيع ابنته لقاء إطعامنا لليلة واحدة .. فكيف أبخل بأبنائى فى سبيل إطعام الهلالية .. !

مغامس وشاة الرم

بعد أن غادر أبو زيد ، وفي صحبته يحيى ومرعى ويونس ، بلاد الملك الدبيسى الذى أكرمهم غاية الإكرام .. واستضافهم لمدة عشرة أيام .. باعتبارهم من شعراء العرب الذين يقصدون الملوك والسلاطين لمدحهم والحصول على عطاياهم ورضاهم .. بينما كان أبو زيد خلال الأيام العشرة يدرس الأحوال .. ويرصد حركة الرجال والجمال والأموال .. وكان يدور فى الأسواق والحوارى .. ويسأل العبيد والجوارى .. عن طرق التجارة والبضائع .. ويشاهد محلات الحرف والصنائع .. فعرف أحوال البلاد وما عند الدبيسى من عسكر وأجناد، وسجل فى عقله مراكزها ومداخل المدينة ومخارجها .. ويحفظ كل ذلك في ذاكرته .. حتى يحين وقته .. ثم غادر ومعه الفتيان الثلاثة مرعى ويحيى ويونس .. قاصدين بلاد الغرب ..

ومضى الأربعة يسابقون الطير الطائر .. ويقطعون البرارى والآكام مدة تسعة أيام .. بالكمال والتمام .. حتى وصلوا إلى مشارف وادى " العميق " .. فسمعوا دق طبول وأصوات زمور .. وشاهدوا من آخر الطريق .. أعلاماً وزينات .. تدل على الفرح والسرور ..

فقال أبو زيد :

– بشراكم يا فتيان .. كأنهم يقيمون عرساً لاستقبالنا والترحيب بنا .. هيا بنا نقصدهم .. ونقضى الليلة عندهم .. ونشاركهم ونهنئهم بأفراحهم ..

* * *

قال الراوى ..

فى الحقيقة أن الفرح لم يكن فرحًا حقيقيًا .. إنما كان اغتصابًا .. ولم تكن العروس التى ستزف فرحانة سعيدة وإنما كانت تعانى قهرًا وعذابًا ..

والحكاية تقول .. صلوا على طه الرسول ..

كان هناك شقيقان أميران ، من أكابر الفرسان يحكمان تلك البلاد بالعدل والقسطاس .. فأحبهم الناس إذ جعلوا الحب والعدل للحكم أساس .. كان الأول هو الأمير عامر وأخوه كان اسمه أبو الوجود .. وكان العامر ولد فارس وحيد جميل الصورة طيب السيرة ذو بأس شديد .. وكان لأبى الوجود فتاة ذات حسن فتان فصيحة اللسان معتدلة القوام كغصن بان .. تتقن الغناء والضرب على العود ..

وقد نشأ مغامس بن عامر وعاش طفولته مع شاة الريم .. وشهدت أرض تلك البلاد وأشجارها وأنهارها وسماها وطيورها قصة الحب الجميلة التى باركها الجميع حتى غيامات الشتا وأزهار الربيع .. وكان أن اتفق الأخوان على تحديد كل شىء للزواج حسب ما قالت الأبراج .. عند ظهور هلال شوال بعد ٥ سنوات بالتمام والكمال .. لكن عمر السعادة قصير .. فى ذلك الزمن العسير .. فقد كان لهما عدو من ملوك العربان .. اسمه " نبهان " .. ما أن بلغه هذا الكلام .. حتى أخذ العدة لينقض على البلاد ويجهز لذلك الجيوش والأجناد .. وفاجأهم ذات يوم .. فاقتحم الحدود .. وتصدى له عامر وأبو الوجود ..

وجرت بين الطرفين معارك يشيب لهولها الأطفال راح فيها عدد لا يحصى من الشجعان والأبطال .. وقتل فيها أبو الجود .. وجرح الأمير عامر .. ولولا أن أسرع إليه بعض جنده لأخذ أسيرًا فى القيود ..

وكان للأمير عامر عبد عملاق اسمه " سعيد " .. وكان متكلفًا برعى الجمال فى الوديان والتلال .. وكان مصارعًا ولاعبًا بالرمح والسيف .. وكانوا يدعونه ليستعرض قوته كلما زارهم ضيف ..

ولما رأى سعيد تلك الحال .. وما أسفر عنه القتال .. امتطى ظهر الحصان .. وهجم على نبهان .. فتبعه من بقى الفرسان . فانقلبت الكفة خاصة عندما طلب نبهان للنزال .. وصدمه صدمة الجبال للجبال .. وتمكن من قتله بعد تعب ونضال ..

وما هى إلا ساعة من الزمان .. حتى تشتت جيش نبهان وأصبح فى خبر كان ..

وقاد سعيد جيوش الأمير عامر وأبى الوجود .. أو ما تبقى منها من فرسان وجنود .. وهم يحملون ما غنموه من غنائم وأموال إلى حيث كان عامر يرقد فى أسوأ حال ..

وقابل الناس سعيد بالتهليل والزغاريد .. فقد كانوا كمن خلقوا من جديد .. بفضل البطل الصنديد .. الذى شكره عامر على بطولته .. وحرر رقبته .. وقربه إليه .. وقد عزت روحه عليه ..

وكان الجرح الذى أصاب الأمير عامر جرحاً لا شفاء منه ولا نجاة .. وأحس أنه على وشك الوفاة .. فجمع الديوان من الأمراء والأعيان والقواد والفرسان .. وأعلنهم أنه لم يجد خيراً من سعيد البطل .. ليضع فيه ما بقى من أمل .. وأنه سيقيمه مكانه ومكان أخيه .. حتى يكبر ابنه ويأتى موعد زفافه إلى بنت عمه .. فيزوجه منها .. ويسلمه الحكم .. وأحضر كتاب الله والفقهاء والعلماء والوجهاء وجعلهم يقسمون مع سعيد على ما قال .. فأقسموا جميعًا على فعله بالتمام وبالكمال ..

والله ينتقم من خائن العهد شر انتقام ..

وما أن تم ذلك حتى غفا عامر غفوته الأخيرة ونام .. ذلك النوم الأخير الذى لا يعرف الأحلام ..

ومرت الأيام ..

صلوا على خير الأنام .. رسول المحبة والسلام ..

لما جلس العبد سعيد على كرسي الأمير عامر .. أطاعه قواد الجيوش والعساكر .. ومشى في ركابه الأكابر والأصاغر .. وكلما رأى الكبار يطأطئون رؤوسهم أمامه .. تجبر على الصغار وأحكم في رقابهم لجامه .. وشيئًا فشيئًا داخله الطمع والعناد .. فقرر أن يصبح الأمير على البلاد .. وجمع الأعيان والعرسان وقال لهم على رؤوس الأشهاد :

– اعلموا يا أيها السادة .. إنني أنقذت هذه البلاد من نبهان .. ورفعت شأنها بين الأوطان .. ولذا فقد قررت أن يكون كل واحد في المكان الذي يستحقه والمنصب الذي يستطيع القيام بحقه .. ولذا أعلن نفسي ملكًا على هذه البلد .. التي هي أكبر من أن يحكمها غر أو ولد ..

وفهم الحاضرون ما يعنيه ذلك .. وخافوا أن يوردهم اعتراضهم المهالك .. وقالوا :

– وماذا يفهم الغلمان والصبيان من أمور الممالك ..

في تلك اللحظة دخل مغامس فلم يعره أحد منهم أي اهتمام .. حتى أنهم لم يردوا عليه السلام .. فخرج من فوره عائدًا إلى أمه .. فأخذت تسرى عنه .. وإلى صدرها تضمه ..

وبينما هما في هذا الغم والنكد .. إذ جاءهم من عند سعيد من يطلب منهما مغادرة البلاد ..

وقال للأم المكلومة :

– لقد أرسل لكما سيدي سعيد .. هذه الناقة الجربانة .. والشاة العيانة .. وهذه الخيمة القديمة .. لتغادرا عل الفور وتخرجا من المدينة ..

فبكت أم مغامس من هذا الفعل الأثيم .. ومنعت ابنها من أن يذهب للانتقام لأنه وحيد .. ولا يستطيع مواجهة سعيد .. وخرجت به مع القليل الذي بقى لهما .. وخرجا من ساعتهما حتى وصلوا إلى واد عميق بقرب الطريق فأقامت خيمتها الممزقة .. وأحاطتها كي تسد مزقها وخروقها بأغصان الشجر والنخيل وفرشتها بالقش والنجيل ..

هذا ما كان من أمر مغامس وأمه .. الحزينة ..

أما ما كان من أمر سعيد الملك الجديد فإنه طغى وبغى وازداد غيه وظلمه .. حتى أنه طمع أن يوطد حكمه .. بالزواج من شاة الريم خطيبة مغامس وابنة أبي الجود .. فأرسل إليها من أحضرها .. لتزف إليه على الفور غصبًا .. وأمر بإقامة الأفراح والليالى الملاح .. فدقت الطبول وعزفت الربابات والنايات .. وعلقت الزينات ورفرفت الرايات ..

وهذا بالذات ما لفت نظر أبو زيد والفتيان عندما سمعوه ورأوه من بعيد .. كان زفاف شاة الريم اليتيمة المغلوبة على أمرها إلى سعيد الذى اغتصب الحكم من خطيبها وحبيبها مغامس وألقى به فى الظلام الدامس ...

* * *

كانت أصوات الطبل والزمر .. تصل إلى مغامس فتدخل أذنيه كالجمر .. فأخذته أمه فى حضنها ، وأخذت تخفف عنه حزنه وهى تدارى آهات حزنها .. وتقول له :

– أن الله الكريم لا يمكن أن يرضى هذا المصير لشاة الريم .. فاصبر يا ولدى ..

وأخذت تصلى وتدعوا الله أن يلهمه الصبر .. فله من قبل وبعد كل الأمر .. وجعل هو يغالب آهاته ويكتم زفراته .. لكنها كانت تزيد عليه وتتغلب عليه فيطلقها فى الليل تثير الحزن والشجن .. فى قلب كل من يسمعها ..

وفى تلك اللحظة كان أبو زيد ومعه الفتيان يمرون عن قرب .. فسمعوا نهنهات الأم ودعواتها .. وأحسوا بحرقة أحزان الفتى وآهاته ..

وتبينوا من خلال نجواهما أنهما فى مأزق كبير ..

فقال أبو زيد للفتيان :

– والله إن وراء هذا الذى نسمع أمر خطير ..

فنادى على أهل الدار .. فخرج مغامس فى الحال ورحب بالأغراب أحسن ترحيب وأخفى عنهم ما كان يمزق صدره من نحيب ..

وأسرع إلى ناقته فذبحها .. مع أنه ليس لديه غيرها .. وأعجب أبو زيد والأمراء المتنكرين ثياب الشعراء .. ما فعله هذا الشاب معهم .. وكيف رغم ما به من حزن أكرمهم ..

وبعد أن أكلوا وشربوا .. أخرجوا الرباب .. وفتحوا الكتاب .. وحلت الفرحة محل الأسى .. وتبادلوا الحديث والحكايات .. وعرف أبو زيد من مغامس وأمه سر ما هم فيه من شتات ..

فقرر أن ينصرهم .. وأن يعيد الحق لأصحابه .. فامتلأ الكوخ بالضحكات والنكات ..

وتصادف فى تلك اللحظة أن سمع ضجة الكوخ أحد الرعاة من رجال سعيد كان يطارد دابة هربت منه .. فأسرع يبلغ سيده أن الكوخ الحزين الذى أقيم على آهات الأنين .. مليء بالفرح والبهجة .. وأن مغامس لديه ضيوف شعراء ينشدونه الشعر .. ويشاركونه الطعام والشراب .. فأرسل سعيد وقد اشتد به الغضب .. جماعة من الجند تحضرهم إليه .. وقد أعمى الغضب عينيه ..

* * *

قال الراوى ..

كان سعيد متكئًا على ظهره وحوله رجاله يأكلون ويشربون فى انتظار وصول العروس .. عندما أدخل الجند الأمراء المتنكرين فى ثياب الشعراء .. فلاقاهم بوجه عبوس ..

وحين ألقى أبو زيد عليه السلام .. لم يجبه الكلام .. ولم يظهر له الاحترام .. بل رفع رجليه وزغر فى عينيه وصاح فيه..

– كيف تكونون من شعراء العرب .. ومن أصحاب الفضل والأدب .. وتتركون زيارة الأمير .. وتذهبون لضيافة صبى حقير ..

كتم (أبو زيد) غيظه وابتسم .. وقد صمم على قتل سعيد وإيراده موارد الندم :

– طال عمرك وزاد مقامك قدرك .. ما جئنا هنا إلا لمدح جنابك .. والتشرف بساحتك وأعتابك ..

رد سعيد مقاطعاً :

– لا مرحباً بك فما أتعس زيارتك ، وما أثقل دمك .. ولا رحم الله أباك ولا أمك ..

تبسم أبو زيد وهو يقول فى نفسه ..

"حان حينك ياسعيد وأنت الذى فعلت ذلك بنفسك" ..

لكنه رفع صوته وقال ..

– لا تؤاخذنا يا عظيم الأدب .. وأشرف العرب ..

فاغتاظ سعيد وأحس أنه يعرض به .. فقال :

– ما هذا الكلام الغليظ الشديد يا أحط العبيد .. والله لولا سواد لونك لقطعت رأسك وأجهزت أنفاسك .. فاجلس حيث أنت فى مكانك واكفنا شر لسانك ..

تقدم منه مرعى وقال :

– لا تؤاخذه يا سيد الأشراف .. ولا تغضب منه إنه قبيح الوجه من الأجلاف ..

فى تلك اللحظة انعكست صورة سعيد أمامه فى كأسه فعرف أنه يقصده بقوله .. فأمر السياف أن يقطع رأسه ..

لكن يحيى أسرع يتشفع له :

– لا يا أمير .. لا يهتم أمير بن أمير مثلك من نسل الأمراء بما يرتكبه حمقى مثلهم من الدهما .. أنهم أقرب إلى ما كانوا يرعونه من إبل وأغنام ولا يتقنون فنون الكلام ..

فزاد بسعيد الغضب .. وقد أحس أنه يعرض به ويصفه بأنه قليل الأدب .. فصاح بالجلاد أن يقطع رؤوس الثلاث شعراء .. قصاصاً لما أظهروه من عداء ..

وهنا نهض يونس .. واعترض طريق السياف .. وقال :

– أعتذر لك أمام الحاضرين والسادة المقدمين .. أنهم من أصل وضيع ولدوا وعاشوا فى الظلام .. ولذا لا يعرفون معنى الكلام .. أنا الذى سأمدحك بما يليق بك من شعر ونظام .. أنهم رعاة أغنام .. فاهدأ وقر نفساً .. فأنت أدرى بأصلهم وبأصلك يا سيد أهلك ..

وهنا لم يطق سعيد صبراً .. فجرد سيفه وقام بنفسه ليقطع رؤوس الأربعة .. وما أن رفع السيف حتى كان أبو زيد قد ركعه .. ووضع السيف بين عينيه .. وأمره أن يأمر رجاله بدعوة مغامس وأمه ليشهدوا مصرعه ..

وليس هناك من مجال لكشف ما جرى من أحوال .. فقد راح سعيد إلى حيث ألقت .. وجلس مغامس على عرش أبيه وتزوج من عروسه شاة الريم ..

وربك ناصر المظاليم ، وهو على كل ظالم أثيم .

* * *

هروب من الأسر

قال الراوى ..

طالت الحرب بين بنى هلال والملك الدبيسى لأيام طوال .. وكان الملك الدبيسى قد طالبهم بدفع كثير من المال .. لقاء نزولهم بأرضه فى طريقهم إلى المغرب وإلا طاردهم وطردهم إلى الصحراء والجبال .. وعندما وصل إليهم خطابه فى أول أيام نزولهم ..

نصح أبو زيد الأمير حسن أن يرسل إلى الدبيسى طالبًا إمهالهم عشر أيام وذلك ليكسب الوقت حتى يستريح فرسان بنى هلال ويكونوا مستعدين للقتال .. وفى نفس الوقت تنكر أبو زيد فى ثياب بائع جوال .. وتسلل إلى مضارب الدبيسى ليتفقد الأحوال ..

وكان أبو زيد قد جاء إلى هذه البلاد من قبل مع مرعى ويحيى ويونس .. عندما كانوا يكشفون الطريق إلى " تونس " .. لذا كان من السهل عليه أن يتجول فى المدينه وما حولها .. ليعرف أحوال الدفاع عنها .. وأين جيوش الدبيسى وأماكن نزولها .. وعدد فرسانها ورجالها ..

وما أن انقضت الأيام العشرة حتى أرسل الدبيسى يذكرهم ويتعجل إذعانهم .. فردوا رسوله فى غلظة معلنين عصيانهم ..

وقال الدبيسى :

– هذا من تدبير الماكر أبو زيد .

الذى لابد من أسره بنفسى ليموت فى سلاسل الحديد، ذلك الغادر الذى جاءنى يومًا فى صورة شاعر ليكشف أسرارى ويعود بأهله ليخرجوا ديارى .. وكان الغيظ يدفع الدبيسى كل يوم للخروج للقتال .. داعيًا أبو زيد كى يتقدم للنزال .. صارخًا فى بنى هلال :

- أين أبطالكم يابنى هلال .. هل تهربون من القتال ..

وما إن أتم كلامه حتى خرج إليه الأمير دياب وحط كأنه السيل قدامه .. وجرت بينهما وقائع وأهوال لم يرها أحد فى قتال أو نزال .. جعلت بنى هلال يهتفون باسم دياب .. ويلقبونه بالمهاب ..

فتكدر السلطان حسن بن سرحان ، لأنه لم يكن يريد أن تعلو بين بنى هلال لدياب مكانة تطاول مكانته .. خوفًا من طموحه وقدرته .. ولذلك تلقاه عند رجوعه من حلبة الصدام وقابله بإعزاز وإكرام .. وشكره على ما فعل .. وحدثه فى أدب وخجل :

- لله درك ياذياب فى القتال ، لكن لا تخرج فى الغد للنزال .. فأنت تقاتل منذ أيام .. والدبيسى مرتاح وأخشى أن يظهر عليك ياهمام ..

لكن دياب قال :

- يا مولاى لا تمنعنى فأنا فداك .. ولا أخشى الموت فى القتال فداك ..

فاحرج السلطان حسن وقال وهو يخفى مشاعره :

- أنا ما تفوهت بهذا الكلام إلا لأنك مرهق وتعبان لكن مادام الأمر كذلك فاخرج غداً للقياه .. لعلك تكفينا شره وأذاه ..

والحقيقة أن الدبيسى كان يطلب لنفسه نزال حسن أو أبو زيد .. وكان رجال الهلاليه يمنعون حسن من الخروج إليه أشفاقًا وخوفًا عليه .. أما أبو زيد فقد كان مشغولاً بإعداد خطة لاقتحام المدينة .. وتجهيز أشياء من النفط لهدم أسوارها ، مستخدمًا بذلك مهاراته والعلوم التى لا يعرف غيره أسرارها .. وبينما كان دياب

يستعد للخروج للقاء الدبيسى فى الميدان .. دخلت عليه ابنته وطفا دامعة العينين محرقة الجفنان .. فقال لها :

– ما أصابك يا حبة الفؤاد .

فصاحت باكية قائلة :

– هل تظننا من الجماد ؟ . وهل خرجنا من البلاد كى يتيتم الأولاد، لقد رأيت حلماً أفزعنى .. لذا لن أتركك تودعنى ..

ضحك دياب وقال :

– هل تخوفين دياب من منام .. ياوطفا ، أنت خايفه وحلمك مجرد أضغاث أحلام .. هيا يا ابنتى وانتظرينى عندما أعود منتصراً من الصدام ..

* * *

وعاد دياب مجروحًا جرحًا بالغا .. بل وكاد أن يقع فى الأسر فقد تلقاه الدبيسى وهو فى أحسن حالاته .. وصمد لكل ضرباته .. حتى جاءته فرصة فوجه حربة لدياب أصابت فخذه وأدمته .. وعلى الأرض أوقعته .. فلما أراد أن يجهز عليه تصدى له رجال من بنى هلال .. حالوا بينه وبين أخذه أسيراً ...

ولما طال أمر المعركة حول دياب الملقى على التراب وصل الخبر إلى أبو زيد.. فهب مسرعًا وامتطى فرسه وهجم بقوة على المغيرين من جند الدبيسى .. وهو يصيح وينادى :

– جاءكم أبو زيد ليث البوادى ومشتت الأعادى ..

وما أن رآه جند الدبيسى حتى فزعوا وتفرقوا .. ولحقوا بملكهم الذى كان قد عاد لمعسكره منتظراً إحضار دياب ميتًا أو حيًا ليأسره ..

* * *

حزن أبو زيد جدا لما حدث لدياب .. وأخذ يؤنب نفسه على استهانته بقوة الدبيسي .. وتفضيله الإنشغال بالكمياء دون القتال .. خاصة وأن الأخبار وصلت .. بأن الدبيسي وعساكره قد أسروا أكثر من عشرين فارسًا من خيرة الأبطال ومنهم الأمير عرندس والرياشي ومفرج) والهدار ، وانزعج الأمير حسن من هذه الأخبار ..

فطلب أبو زيد على عجل لكى يبحث الأمر معه . ولما عقد المجلس وطال الجدال .. نصح أبو زيد بطلب النجدة .. والتجهيز لهجوم شامل وعام على العدو وإعطائه هو مهله ثلاثة أيام .. ليفك أسر الأسرى فيها .. وليجهز وصفته الكيماوية لاقتحام الأسوار . ولم يصدق أحد من الحاضرين أن ثلاثة أيام كافيه لانجاز هاتين المهمتين المستحيلتين ...

وهمس بعضهم .. لبعضهم .. يبدو أن أبو زيد لا يعرف ما يقول .. أو أنه يحاول الهرب من القتال المهول .. لكن الجميع كانوا يثقون فى أبى زيد ولا يعرفون عنه أنه كذاب أو هراب .. ويكفى أنه هو الذى أنقذ دياب ..

* * *

وصل الدبيسى غاضبًا إلى معسكره .. فأحضر الأسرى وصب جام غضبه عليهم .. وتوعدهم بالقتل والدمار ، فلم تزدهم غضبته إلا إصرارًا على إصرار .. فأمر بإرسالهم إلى السجن الرهيب تحت المدينة .. حتى لا يعرف لهم أحد أثر جره ..

وكان أبو زيد الذى وعد باطلاق سراح الأسرى قد وصله فى اليوم التالى .. أن عشرة أخرين من بينهم الأمير زيدان الهلالى قد وقعوا فى الأسر هم الآخرين .. حين جاء إليه أهلهم صارخين ضارعين .. فطيب خاطرهم ووعدهم قائلا :

– متى أخلفت لكم وعداً .. غداً على الأكثر سيكون الأسرى فى أسرتهم ..

ثم أنه قام .. ودخل إلى خيمته ..

وجلسوا ينتظرون عودته .. فلم يظهر لهم ولم يسمعوا خطوته فدخلوا يستطلعون الخبر ..

فلم يعثروا له على أثر ..

فبدأ اليأس يغزوا قلوبهم ..

فأنبهم أبو القمصان على قلة إيمانهم .. وطلب منهم العودة إلى بيوتهم ..

اختفى أبو زيد من معسكر بنى هلال فجأة مما جعل القوم يضربون أخماساً فى أسداس .. وكل منهم يفسر إختفاه على هواه ..

* * *

فى نفس الليلة ظهر وسط ساحة السوق الرئيسية ومع أذان العشاء .. رجل فارسى يتحدث الفارسية والعربية بطلاقه .. ويرتدى عباءة خضراء وعلى رأسه عمة سوداء من الحرير مثل كل شيوخ الشيعة .. وكانت له لحية بيضاء تبعث على الرهبه .. وهو ويوزع على الخلق بركاته وعلى الفقراء حسناته .. ويدعو لهم .. وكأنه هو الذى يشحذ منهم ..

وتصادف أن تعثر أحد البغال تحت ثقل حمل من الملح .. وكاد صاحبه ييأس من حياته إذ تكوم الحمل من الأجولة على رقبته .. فتقدم الشيخ من البغل وأمسك بلجامه .. وشده لأعلى مرة واحدة وهو يقول :

- قمم بإذن الله ..

فصرخ العامة اعجاباً بهذه المعجزة .. فاندفعوا يتبركون به .. وهو يدعو لهم ويدعو للملك الدبيسى بالنصر بإذن الله ..

وعندما أذن للصلاة .. دخل إلى الجامع القريب فقدمه الأمام على نفسه ودعاه أن يؤم الناس ، فحاول الاعتذار ولكنه قبل أمام إصرار الجميع .. وقف خطيباً فيهم فأسال دمعهم .. وهو يعظهم ويدعوهم لطاعة الله .. وطاعة ملكهم الذى يهدده العريان.

واصطف المصلون خلفه وهم يبكون لتهجده .. وتنخلع قلوبهم لشدة ورعة وهو يتلو عليهم آيات العذاب الشديد لعدم طاعتهم ..

ثم جلس إلى أحد الأعمدة فلم يخرج أحد من الجامع .. بل تحوطوا حوله .. فبدأ يعظهم ويحكى لهم سير الأولين .. والناس مذهولين مسحورين من قوة عباراته .. وحلاوة صوته حين ينشد الشعر أو يقرأ القرآن .. وفجأة وصل بعض رجال الملك الدبيسى إلى الجامع .. وتقدموا منه .. فتفرق الجالسون عن طريقهم بل خاف البعض وانطلق خارجًا من الجامع .. وقد أثار ظهور رجال الملك فجأة رعبهم وساد صمت ووجوم .. ولكن الشيخ لم يكف عن الحديث وهو ينظر فى عيون القادمين مباشرة حتى اكتست ملامحهم رقة لا يعرفونها بتأثير عينيه القاهرتين ..

– ماذا تريدون ؟ .. ولماذا أزعجتم تلاميذى؟ إذا كنتم تريدون الاستماع فأجلسوا .. كيف تدخلون إلى المسجد ومعكم السلاح ؟ ..

ارتج الأمر على الجند وقالوا:

– أرسلنا الملك الدبيسى إليك لنأخذك إليه ..

فقال الرجل :

– سمعًا وطاعة .. ولكن امهلونى حتى أنهى حديثى إلى الناس ...

ارتبك الحراس ولكنهم قالوا :

– لا نستطيع أن نذهب دونك فقد أمرنا أن نعود بك .. وقد سمع بكراماتك وأفعالك فى السوق ، بمجرد أن رجع من المعركة وهو يرفض أن يستريح قبل أن يراك .. اكتسى وجه الرجل بعض الحزن والحرج .. ونظر إلى الناس كأنه فى حرج أن يطلب منهم الإذن .. لكن الناس سرعان ما فهموا موقفه فصاحوا فى وقت واحد :

– لا .. يا سيدنا اذهب إلى الملك .. وسنكون فى انتظارك حين تعود ..

وأسرع الجميع يفسحون له الطريق .. وظلوا خلفه حتى وصلوا إلى قرب مضارب الملك فمنعهم الحراس وطلبوا منهم العودة .. وأظهروا لهم بعض ما تعودوا عليه من الجنود .. ولكن دون أن يرى هو قسوتهم تلك .. ولكنه كان يعلم ما يجرى فالتفت فجأة وهو يظهر الغضب الشديد ونهر الجنود فارتعدوا ..

وأشار للناس أن يعودوا فى هدوء ، فعادوا دون كلمه وسط ذهول الجند وحرجهم ..

* * *

قام الملك الدبيسى من مجلسه وما تزال عليه عدة الحرب .. إذ كانت قد بلغته مآثر الشيخ فى السوق .. وهش له فاردا ذراعيه ..

– يامرحبا بك أيها الشيخ .. من أين أنت يا ابن الكرام ؟

فرد عليه الشيخ :

– من بغداد يا سيدى .. وأنا أحد فقراء " سيدى عبد القادر " صاحب الفضائل والمآثر . وقد جئت إليكم حاملاً بشراه لكم بالنصر على هؤلاء الأعراب .. ففرح الدبيسى لبشرى الشيخ عبد القادر .. وقال :

– ونعم ياشيخ .. ادع لنا أيها الدرويش أن يظهرنى على ذلك الغادر الماكر أبوزيد .. الذى خدعنى من قبل عندما جاء مع بعض الشعراء متنكراً ليكشف أسرار بلادى .. وها هو قد عاد مع بنى هلال ليحولوا بلادنا إلى إطلال ...

أخذ الشيخ يتمتم بآيات وكلمات غامضة بالفارسية .. وهو يدور بمبخرته حول الملك .. وهو يهمس له بكلمات فارسيه وأخرى سريانيه .. حتى سرى الخدر فى جسم الملك وشعر كأنه يطير منتصراً على فرسه وأبو زيد مجندل تحت قدميه ..

– لا تخرج غداً للحرب يامولاى .. بل بعد غد استرح الآن فنجمك غير ظاهر غداً .. سأذهب إلى المدينة لأصلى بالناس فى جامع " سيدى عبد المقصود " وادعو لك

بالنصر .. والآن خذوه لينام ويستريح .. واتركونى وحدى الآن .. وأن غداً لناظره قريب ..

* * *

لم يجرؤ أحد من الجنود أن يتبعه .. وما أن تأكد أن أحداً لايراه .. حتى غاب فى دياجير الظلام .. وبعيداً عن عيون المتطفلين .. دلف إلى زقاق وفى خفة الفهد صعد سطحًا وقفز إلى آخر .. وتدلى فى حارة صاعدة ثم نزل إلى شارع خال إلا من بعض جنود يتحركون فى انتباه .. كان يعرف المكان .. فقد كان هو السجن الرئيس الذى يحتفظ فيه الدبيسى بالأسرى .. ظهر الشيخ فجأة أمام الباب الرئيسى حيث كانت مجموعة من الحراس .. اندفع بعضهم نحوه ليمنعه من التقدم ولكن أحدهم عرفه .. فقال لهم :

– لا .. لا .. اتركوه إنه شيخ البركة الذى كان فى السوق اليوم .. وطلب الملك لقاءه ..

– بارك الله فيك يافتى . ولكن ماذا تفعلون هنا ولم أنتم بعيدون عن أرض المعركة .

قالوا له أنهم مكلفين بمهمة أشد من القتال ففى داخل السجن الذى يحرسونه أهم أبطال بنى هلال وهمس له أحدهم :

– لقد أضاف الملك إليهم خمسة آخرين من أهم رجال بنى هلال .. منهم سرور بن فايد .. ونعيم الزحلان ، ولابد أن هذا سوف يجعل الدائرة تدور على بنى هلال .. خاصة ودياب جريح .. وأبو زيد هربان ..

ضحك الجنود فى سعادة فجلس الشيخ وهو يضحك ..

– أضحكتنى أيها الفتى .. هذه بشارة سعدك .. وسوف أحدث الملك عنك .. ولكن لابد من الاحتفال .. فدعونا .. نبتعد عن الأنظار هنا .. حتى لا يظن أحد بنا السوء .

ضحك الجنود وأفسحوا مكانا في حوش السجن المجاور للباب وفرشوا المكان وجلسوا حوله يستمعون له .. يسحرهم بحديثه وترتيله وغنائه .. وكان أبو زيد قد وضع شمعة غريبة تضوى ضياء لم يروا مثله .. بعد أن سد أنفاسه سراً بقطعتين من الشمع الجاف ..

وكانت تلك هى شمعة البنج التى قضى الأيام الماضية فى صنعها .. وما أن مضت ساعة فى الحديث والضحك والحراس منبهرين بسحر الحديث والكلام .. حتى نام كل واحد منهم فى موضعه .. وهنا هب الشيخ صاحب الذقن المهولة . وقفز فى خفة الفهد .. وسار إلى حيث الأسرى .. بعد أن قضى على حارسين أو ثلاثة فى طريقه .. ثم أخرج من جرابه حجر المغناطيس .. وحركه أمام الأقفال فتهاوت ..

وفتح الباب .. ودخل إلى حيث كان فرسان بنى هلال .. فى القيود يقاسون الأهوال .. فطمأنهم ووزع عليهم أسلحة الحراس .. وبعد أن قيدوهم وأخفوهم عن الأنظار .. دلهم عل الطرق الجانبية التى يعرفها جيداً .. حتى وصلوا إلى قرب باب المدينة .. فطلب منهم الانتظار حتى يفتح لهم ..

وما أن رآه الحراس حتى تعرفوا عليه وأسرعوا يلتفون حوله للتبرك به .. ونيل رضاه وخالص دعاه .. ففرق عليهم تمراً مبروكًا من أرض " نجد " .. وما أن تناولوه حتى راحوا فى سبات عميق .. فقام وفتح الباب .. وأطلق صفيراً خاصاً .. فأسرع فرسان بنى هلال ، وكانوا أكثر من سبعين من خيرة الرجال .. انطلقوا جميعًا وهو خلفهم نحو مضارب بنى هلال .. التى كانت غارقة فى الظلام .. فاستيقظ الأهل .. فرحين لعودة الأبطال سالمين غانمين وأقبل الجميع على أبو زيد يهنئونه على ما فعله، ويعتذرون عن ظنونهم التى لم يستطعوا لها تفسيراً .. ولم يعرفوا لها أى سبب ! .. فضحك أبو زيد وهو يقول دون غضب :

– قد يكون الهرب لسبب فيه العجب ..

قال الراوى ..

أما ما كان من أمر الملك الديبسى الذى قام من نومه على أصوات الفرح والانتصار فى معسكر بنى هلال .. فتملكه العجب ، وكان الجميع خائفًا إن يعلنه بالسبب .. حتى تملك منه الغضب .. وأطاح برأس الذى رفض أن يجيب .. فأسرع الجميع يقصون عليه الحادث الرهيب .. فصار النور فى عينيه ظلاماً .. فها هو أبو زيد يخدعه للمرة الثالثة .. وأحس أنها الضربة القاضية .. وبالفعل .. كان الغد يومًا رهيبًا .. إذ ما أن أصبح الصباح .. حتى أمر بحمل السلاح .. وكان أبو زيد قد نصحه بعدم الخروج للقتال ذلك اليوم .. لكنه لم يسمع الكلام .. فهل على أبو زيد من لوم .. أن من يدخل الحرب غاضباً .. لابد أن ينهزم أو يفر هارباً ..

وهذا بالضبط ما كان ..

صلوا على خير الأنام ..

* * *

المارية تنزل النهر

كانت " المارية " بنت القاضى " بدير " تحرقها الرغبة فى أن ترى " النهر " .. أى نهر .. كم سمعت من حكايات عن ذلك الشىء الرهيب .. الجميل .. الذاخر بالمياه العذبة .. لم تكن قد رأت نهراً فى حياتها .. ولكن ما كانت تسمعه من حكايات ملأ جسدها رغبة فى النزول إلى الماء .

وكانت تهزها التساؤلات حول إحساس مثلها حين يغمرها كل هذا القدر من الماء .. وهى التى عاشت كل هذا العمر يؤرقها الرعب من فقدان ما لديهم من ماء .

كانت صبية عندما جفّت عيون الماء فى وادى العباس .. وفى نجد .. تأتيها ذكرى آخر عين ماء جارية رأتها وكأنها طيف من حلم قديم . الماء أغلى من الذهب .. يحفظونه فى القرب والأوانى ويتعاملون معه بحرص شديد وهو فى النهر فيضان وموج لا يحد ....

وكان جسدها الذى تلسعه الرمال ويحرقه الجفاف .. حين ترطبه ببعض ما توفره من نصيبها الضئيل من الماء يكاد يقبل بطن كفها حين تمسح عليه بقطرات من الماء ..

كانت تحس جلدها يتفجر بنشوة رائعة وهو يمتص رحيق الماء القليل الذى تهدهده به .. فما بالك وهم يتحدثون عن بشر ينزلون النهر ويغمرهم الماء حتى رؤوسهم .. يا لها من روعة ..

كانت المارية جميلة ، شاع ذكر جمالها بين الرجال .. لكنها كانت حزينة تتحدث عن حزنها النساء .. ولم تكن تتحدث عن رغبتها الدفينة التى هى سر حزنها إلى

أحد .. إلا لجاريتها العجمية التي كانت تؤجج لديها تلك الرغبة في الغوص في الماء ، بحديثها الدائم عن بلادها التي تجرى من تحتها الأنهار .

وكيف كانت تلعب هي وأخواتها وصاحباتها وهن صغيرات في النهر عاريات .. يتراشقن بزخات الماء العذب حتى دهمها ودهمهن ذات يوم أولئك النخاسين ، الذين باعوها فيما بعد للقاضي بدير . لتحرم إلى الأبد من تلك المتعة التي لا شبيه لها .. والتي لم تعرفها المارية أبداً ..

همست الجارية للمارية ليلة عسكر بنو هلال بعد رحيلهم عن بلاد الدبيسي :

– نحن الآن بالقرب من الفرات يالمارية . فأججت فيها الرغبة الدفينة العارمة للنزول إلى النهر .. وأخذت تتحين الفرصة لتفعلها ولو كلفها ذلك حياتها ..

قال الراوى ..

كان للملك الدبيسى وزير اسمه " همّام " .. وحين قتل الملك وأحس أن الدائرة ستدور عليهم سعى لإقرار السلام .. فأخذ الأمير مزيد بن الدبيسى وأمه بدر التمام .. وانطلق إلى حيث خيمة الأمير حسن بن سرحان .. وطلب منه العفو والأمان .. فأوقف بنو هلال هجماتهم .. وعاد الناس فى مملكة الدبيسى إلى بيوتهم .. وتولى الأمير مزيد حكم البلاد .. وزوجة الأمير حسن من ابنة عمته " زينة العباد" وأقيمت الأفراح والليالى الملاح .. إلى أن أحس الأمير حسن أن كل كبير وصغير فى قومه قد استراح .. فأمر بالاستعداد للرحيل .. ليكملوا طريقهم الطويل ..

ولما وصلوا إلى مشارف بلاد العجم أطلقوا مواشيهم فى المراعى التى كانت كثيرة الأشجار .. وافرة الخيرات بديعة الأزهار .. فعاثت فيها كالجراد وأفزعت الآمنين من الرعاة والفلاحين من أهل البلاد .. وصل الخبر إلى السبعة ملوك العظام الذين كانوا يحكمون بلاد الأعاجم فى تلك الأيام .. وهم : فرمند ، وعلى شاه ، والصلصل ،

والمغل ، والقمقام ، ومنذر المنذر ، والملك النعمان .. الذين اجتمعوا ليضعوا خططهم لصد هذا العدوان ..

قال بعضهم :

– لنخرج إليهم قبل أن يستريحوا من السفر ، ونبادرهم بالهجوم قبل أن يستفحل لهم الخطر .. لنسبى حريمــهم والعــيال .. ونستولى على ما نهبوه من الدبيسى من المال ...

وعـز على الملك النعـمان وكان أصله من العرب .. حرب بني هلال .. فقال :

– إذا كان الأمر أمر جمال ومال .. فلنطلب منهم عُشر الأموال جزية لبقاءهم فى أراضينا ، واستهلاكهم لمراعينا .. فإن استجابوا كان هذا هو المطلوب .. وإذا لم يوافقوا بادرناهم بالقتال الغضوب !..

واستحسن الملك الخرمند هذا الكلام ودعى أصحاب الورق والأقلام ، وكتب رسالة بهذا المعنى لأمير بنى هلال . وهى باختصار .. المال أو القتال ..

وكان الأمير حسن قد ذهب إلى " نجد " لبعض الأعمال .. فلما وصل الرسول حامل الرسالة إلى المضارب .. سأل عن الأمير حسن فقالوا له أنه غائب .. ودله بعضهم إلى خيمة الأمير أبو زيد الذى ولاّه الأمير حسن الأمر فى غيابه .. وحين همّ بالذهاب اعترض طريقه الأمير دياب عند الباب .. وأخذ منه الرسالة .. وقرأها فى عجالة ، فاشتد به الغضب .. وضرب الرسول بلا سبب ..

وخرج أبو زيد على الضجيج والزعيق . فلما عرف السبب اشتد به الضيق .. لأنه لم يكن يوافق على ما فعله دياب دون مشورته .. ولكنه أمر بالاستعداد للقتال حتى لا يظهر أمام رسول العدو انقسام قبيلته .. فيفهم منها ضعف جبهته ..

وبعد أن انصرف الرسول عائداً بجواب رسالته .. أخذ أبو زيد يؤنب دياب على فعلته .. لأن الواجب كان يقتضى مشورته خاصة وأنهم فى حاجة إلى الراحة ، وكان يجب أن تكون فرصتها متاحة ..

لكن دياب سخر منه وقال :

- أصبحت تفضل أمور الكيميا على القتال ..

وابتلع أبو زيد سخرية دياب على مضض وسكت .. لأن خلافهم لم يعد له معنى والحرب قد أعلنت والمعركة اشتعلت ..

* * *

تسللت المارية ومعها جاريتها من المضارب .. بينما كان الجميع مشغولين بالمعركة الدائرة من بعيد .. إذ كان الجرحى يعودون لمحاولة مداواة جراحهم والتخفيف عنهم . بينما كان كثيرون من الرجال والعبيد مشغولين بتجهيز أدوات الحرب بدلاً من المفقودة، وكانت النساء والإماء مشغولات بإعداد الطعام .

انتهزت المارية هذا الهرج والمرج .. وخرجت مع جاريتها .

وتسللتا مستترتين بالشجيرات والتلال متجهتين إلى حيث النهر القريب الذى أكدت موقعه الجارية العجمية على بعد خطوات ..

- إننى أكاد أشم رائحته يا مولاتى ..

وسرعان ما وصلتا إلى الضفة العالية .. فصاحت الجارية فى فرح وهى تجرى صاعدة إليها .. وتبعتها المارية بلا وعى ..

وما أن صعدت الجارية أعلى الضفة حتى صاحت بالمارية .. وهى تركع على ركبتيها وتقبل الأرض فى خشوع وتبكى .. مما أثار دهشة المارية .. ولكنها واصلت الصعود وراءها حتى صارت إلى جوارها .

وما أن رأت النهر حتى شهقت مندهشة وقد زاد انفعالها .. وتوتر جسدها حتى بكت .. وهى تلمح تلك النظرة الغريبة فى عيون جاريتها الباكية .. وأحست أن شيئًا ما يدور بخلدها .. ولكن انفعالها بمنظر المياه الجارية تغلب على خوفها .. فنزلت مندفعة

إلى حيث مجرى الماء .. وما أن تأكدت أن أحداً لايراها حتى خلعت ملابسها .. فشع جسدها نوراً أدهش الجارية نفسها .. وفى نزق وتهور لم تستطع الجارية أن تمنعها من أن تلقى بجسدها فى أحضان النهر وهى تشق وتصرخ فى فرح وتتقافز كطفلة نزقة تمور فى قلبها نشوات بريئة لا حدود لها ..

ولكن قدمها زلت فجأة فصرخت فى هلع وانتابها شعور بالخوف لم تعرف له مثيلاً .. وحين علت المياه ملأها رعب لم تعرفه من قبل فازداد صراخها .. ولكن الجارية أسرعت إليها وقفزت بملابسها وراءها تساعدها على الوقوف على قدميها .. وتعيد إليها هدوءها ..

وما أن استعادت توازنها حتى هدأت نفسها وعادت إليها سعادتها الغامرة وإحساسها الممتع بنشوة جسدها المغمور بكل هذه الكمية من المياه .. وكذلك عادت تلاحظ تلك النظرة الغريبة التى لاحت فى عيون جاريتها من قبل ولم تعرها التفاتاً ، لكنها فى هذه المرة قالت :

- ماذا بك ياعفراء ؟

قالت عفراء وقد بدت فى نظرة عينيها بعض القسوة الممزوجة بالحزن :

- لست عفراء .. ليس اسمى عفراء ياالمارية) إن إسمى جلنار ..

تعجبت المارية لتلك النظرة ، ودهشت لأنها خاطبتها باسمها مجرداً من كلمة يا سيدتى .. أو يا مولاتى .. فأمسكت بها فى دهشة ولكن فى تعاطف مع الدموع التى لاحت فى عينيها ..

- ماذا بك ياعفراء ؟ هل أغضبتك ..

نزعت جلنار كفها من بين يديها وقالت :

- اسمى جلنار ... وأرجوك يا سيدتى .. لقد حققت لك حلمك بمياه النهر .. فاستمتعى كما تشاءين ولكن دعينى أحقق حلمى بالعودة إلى وطنى .. إلى أهلى .. فقد

كنت سيدة فى بلادى .. سامحينى .. فلابد لى أن أفعل ذلك .. الوداع .

وانسحبت جلنار إلى وسط النهر وهى تلوح للمارية ثم استدارت سابحة نحو الضفة الأخرى وهى ترنو إلى ما وراء الضفة حيث مراعى طفولتها ، وحيث اتضح فيها أصوات الأطفال الذين يلعبون فى حرية ..

بينما ظلت المارية واقفة وسط الماء كجنية عارية صعدت من الماء ولم تنزل من الصحراء .. مذهولة لا تستطيع أن تنطق من المفاجأة .. إلى أن تمكنت من استعادة نفسها حين تساقطت دموعها الساخنة فلسعت خدها البارد .. فصاحت لما تنبهت لوحدتها التى لم تتعود عليها .. فى مياه نهر لا تعرفه .. وجمعت مشاعر الخوف والرهبة الممزوجتين بسعادة غامضة :

- جلنار مع السلامة ..

على صوت المارية الصارخ .. أتى عدد من جنود العجم وشراذمهم الهاربة من المعركة عندما رأوا الدائرة تدور عليهم .. وما أن رأوا الحورية العارية فى النهر حتى انتابهم رعب سمرهم فقد ظنوها لفرط جمال جسدها حورية من بنات النهر ..

وعندما رأتهم المارية صرخت مرعوبة ، وأسرعت تستر جسدها بالثوب الملقى على الضفة .. عندئذ عرف الجنود أنها إنسية فعادت لهم أرواحهم بعد أن سلبتهم إنسانيتها سحر ذلك الجسد الرائع الذى يشع نوراً .. فاندفعوا ناحيتها .. يحاولون النيل منها ..

لكن سرعان ما تحول هجومهم عليها إلى قتال شرس فيما بينهم تطايرت فيه رؤوس .. وقطعت أيدى وكسرت عظام ..

وحولهم منظر الدم وأحاسيس الألم إلى وحوش تلوح فى عقولهم أطياف جسد الفريسة فيزيدهم شراسة ..

وفجأة علت صرخة أعجمية لها كبرياء وقدرة على السيطرة .. فوقفوا أجمعين كأنما شلتهم المفاجأة . وحين أفاقوا أسرعوا يركعون أمام الملك الصلصيل الذى كان يحاول جمع شراذم جيشه المقهور ، ليعاود الهجوم فراراً من الهزيمة ..

وحين استوضحهم سر قتالهم .. أشاروا فى رعب ناحية المارية التى كانت تحاول إكمال ستر جسدها المضىء فى رعب ..

اهتز قلب الصلصيل عندما ومض فى عينيه بريق الجسد المضىء .. فتقدم منها فى بطء ووجل وهو يملأ ناظريه منها ..

– من أنت أيتها الحورية ؟ ..

فردت وهى تحاول استعادة رباطة جأشها وإخفاء رعبها عندما عرفت هويته ..

– أنا الأميرة المارية ابنة القاضى بدير شيخ قضاة بنى هلال .. وأخى هو .. فضحك مقاطعاً فى زهو وقد أسعده أن تقع فى يده هو بالذات :

– لم تعودى كذلك يا جميلة لم تعودى ..

ثم نزل عن حصانه وجذبها إليه بعد أن أمسك بذراعها فى قوة ..

– الآن أنت أسيرة الصلصيل يا ست البنات ومن نصيبه .. وستكونين أعز جواريه ..

صرخت المارية صرخة هائلة رددتها الطيور الفزعة ..

– لا . يا غنيم .. انقذنى ..

كانت قد تعرفت على ابن عمها " غنيم " الذى تصادف مروره بالقرب منهم فى طريق عودته من مهمة ..

لمحته فصاحت به فاندفع كالسيل يهجم على الصلصيل مخترقاً الجمع المحيط به من عساكره وعبيده ..

وتلقاه الصلصيل فى بأس وقوة .. فقد كان مقاتلاً شرساً .. وبينما قيد الجنود المارية وأركبوها حصاناً مبتعدين بها عن ميدان المعركة .. بينما ظل الفارسان يصولان ويجولان ويحاور كل منهما الآخر فى قوة وعنف .. تشتعل فى قلب غنيم نار العار التى ستلحق بعمه بسبب أسر ابنته .. وتعتمل فى قلب الصلصيل لواعج إعجاب وهوى شديد للحصول على تلك الحورية ، التى طرحها النهر كجنيات الحكايات القديمة .

وطال القتال حتى استطاع الصلصيل أن يواجه ضربة إلى غنيم ألقت به قتيلاً على ضفة النهر .. فشهقت المارية شهقة أعقبتها بصرخة ألم تحمل كل عذابات الأسر والعبودية التى راودها طيفها وأحست طعمها المر حين شاهدت فرحة الحرية فى عيون جلنار ...

وشاهد بعض العربان من بنى هلال ما حدث فمضوا حزانى يبلغون الخبر إلى القاضى بدير الذى صرخ صرخة حزن رهيبة أفسدت عليهم فرحة الانتصار .

* * *

أسيرة فى قصر النعمان

ظل بكاء القاضى بدير المبالغ فيه كما قال أبو القمصان يخيم على مضارب بنى هلال .. فيزيد من حزنهم عندما يهزمون .. ويعكر صفو فرحتهم إن عادوا منتصرين ..

وكانت خطواته الثقيلة برأسه المنكفئة على صدره خجلاً وحزنًا .. لأسر ابنته .. تثير تعليقات العامة والأمراء ..

- ما الذى يفعله بنفسه ؟ .. هل هذه أول مرة تأسر له ابنة ؟..

- وهل ابنته أعز عليه من بناتنا ؟..

- ما الذى كانت تفعله عند نهر الفرات ؟..

- هذا هو الأمر العجيب .. هل كانت ذاهبة لتستطلع أمور الأعداء ؟..

- أم كانت تخطط للهرب إليهم ؟..

- اخرسوا .. المارية لما تكن لتذهب إلا غصباً عنها ..

- إذن أين جاريتها .. ولم أخذتها معها ؟ أليس هذا ما يؤكد أنهما كانتا تحاولان الهرب ..

- أغرتها الجارية بالذهاب ..

وكان هذا الكلام يصل إلى القاضى فيزيد من غضبه وحزنه .. ولكنه لم يكن يستطيع إيقاف حديث الناس أو الرد عليهم .. لأنه هو نفسه لم يفهم لم ذهبت ابنته فى صحبة جاريتها إلى النهر ؟ .. ولم خرجت أصلاً من خبائها وابتعدت عن المعسكر كل هذه المسافة ؟..

كانت شكوكه تزداد فتقبض بيد من حديد على قلبه .. كلما وصل إلى سمعه ما يقوله الناس ، ويحكونه عنها وعن غرامها بالملك الصلصيل .. الذى يدعون أنه قابلها كثيراً قبل هذا المرة ، التى خطفها فيها ، بل وتطوع بعضهم كى يؤكد أنه رآهما بنفسه .. وأضاف البعض من عنده ما يؤكد أن الصلصيل هو الذى أرسل الجارية من قبل عندما سمع عن جمال المارية ..

ضاف صدر القاضى بدير بهذه الحكايات .. فلجأ إلى أبو زيد ليفتح له الكتاب أو ليقرأ الرمل أو يستخدم قدراته الخفية السحرية ليبين له وجه الحقيقة حتى يرتاح قلبه .. وهو يقسم له أنها لو كانت قد ذهبت إلى الملك الصلصيل بنفسها فسوف يوافق على زواجها منه .. وقد يكون ذلك هو السبيل لوقف هذا الاقتتال المفجع الذى لا تبدو له نهاية ..

– قد يكون زفافها إليه السبيل إلى السلام . يا أبا زيد .. لكن لابد أن نعرف .. وأن يكون هذا برضائى .. ارحمنى يا أبا زيد .. فالشكوك تكاد تقتلنى .. والشعور بالعار يشق قلبى ..

* * *

فى اليوم التالى قرر أبو زيد ألا يخرج للقتال . فسخر دياب وهو يقول :

– مرة أخرى تفضل أمور السحر والكيمياء على القتال .. ألذلك غضبت لأننى رددت رسولهم خائباً وأهنته وأهنتهم لأنهم يريدون نهب أموالنا ..

قال أبو زيد دون أن يتحرك من أمام باب خيمته :

– مادمت استطعت أن تقنع الأمير حسن بما فعلته يا دياب .. فحاول اليوم أن تبرر له كل هذه الخسائر .. فقد تعيد الفرحة إلى قلب القاضى بدير .. بأن تعيد إليه ابنته المارية ..

أدار دياب فرسه فى كبرياء وهو يقول :

- فلتبق في الخباء يا أبا زيد .. ولسوف تنصرني اليوم الأرض والسماء معًا .. لأذيق ملوك العجم الردى لتطاولهم .. ولتعد أنت لكتبك وأباريقك .. أعانك الله على ساعات ضيقك ..

وانطلق دياب ومعه الأمير حسن على رأس الهلالية إلى المعركة حيث كانت جيوش الأعجام .. منتشرة فوق التلال والسهول في أبهة ونظام ..

كان دياب قد أقنع الأمير حسن بصحة ما فعله مع رسول ملوك العجم .. لأنهم لو استجابوا لهم لطمعوا في كل ما حصلوا عليه من غنائم الدبيسي ..

وكان الأمير حسن قد عاد من نجد بعد أن حمل إلى أهلهم هناك الكثير من الخيرات والأنعام التي كسبوها خلال معاركهم السابقة .. ولما عاد كانت شهيته قد تفتحت للمزيد من الغنائم .. ولذا أقر دياب على خطته وخرج معه رغم أن رجاله كانوا متعبين من الرحلة .. وصور له دياب أن كل شيء على ما يرام ..

ولكنهم ما أن خرجوا للأرض المكشوفة حتى انقضت عليهم جيوش العجم .. من كل ناحية .. وبذل الهلالية كل مالديهم من جهد وقوة .. ولكن الدائرة دارت عليهم .. فقد كان العجم يخرجون إليهم فيلقًا وراء فيلق .. وجيشًا وراء جيش .. حتى حصروهم وحاصروهم .. فتراجعوا مدافعين عن أنفسهم حتى وصلوا إلى مشارف المضارب وازداد الصراخ والعويل .. ولما وصلت بعض النساء إلى خيمة أبو زيد تستنجد به وتستثيره .. ترك ما بيده وأخذته النخوة .. واندفع فوق حصانه شاهراً سيفه يهاجم العدو .. ويشد أزر المنسحبين ويعيد الروح إلى الخائفين وهو يصيح صيحات تهتز لها الجبال .. حتى صد الهجوم ومنع تقدم العدو ..

واستعاد الهلالية مع صرخاته وصيحاته عزمهم .. فقويت روحهم وصاروا يكرون حوله وخلفه .. حتى استطاعوا استعادة زمام النصر .. وحرروا من وقع في الأسر .. وردوا العجم عن المال والحريم .. وسبحان الله العظيم مبدل الهزيمة نصراً ..

وعندما عاد أبو زيد بعد أن هبط المساء وحوله الجند يهتفون وسط زغاريد النساء .

قال له الأمير حسن :

– مثلك تكون الأبطال يا زينة الرجال .

وقال دياب فى خجل :

– لولاك يا فارس الفرسان لكنا فى خبر كان .

بينما تعلق القاضى برقبة فرسه وهو يصرخ ..

– لكننى أريد المارية فمازالت فى الأسر ضحية ..

فطيب أبو زيد خاطره وقال :

– اطمئن يا قاضى العرب .. غداً ستعود لك ابنتك أيها الشيخ الجليل .. وستشفى عودتها ما بقلبك وقلبى من غليل .

* * *

قبيل الفجر تسلل أبو زيد ومعه أبو القمصان وبدر بن غانم وقد ارتدوا ملابس الأعجام .. وتسللوا إلى مدينة الكوفة مع الداخلين إليها من تجار ورعاة وباعة وسماكين وجمالين .. كان الجنود يراقبون الداخلين والخارجين فى حذر وتدقيق ..

ولكن لغة أبو زيد الفارسية سهلت الأمر عليهم فأخذوا يعرضون ألعابهم فى السوق .. ولعب أبو القمصان دور المهرج المضحك البهلوان .. بينما راح أبو زيد يقوم بدور المصارع الجبار الذى يأكل النار .. ويفك سلاسل الحديد .. بينما بدر بن غانم يلعب دور الأخرس الذى يقرأ الفنجان ..

وكان أبو زيد يقود جماعته عبر حوارى وشوارع الكوفة التى يعرفها تماماً .. حتى حل الظلام .. وخف حولهم الزحام .. وتفرق الناس كل إلى بيته .. فتغير الحال .

وقفزوا فى خفة الفهود وتسللوا إلى قصر الملك الفرمند حيث عرفوا من أحاديث الناس وثرثرة الحراس .. ما جرى بين ملوك العجم حين رأوا جمال المارية ، وكيف قرروا منعًا للخلاف والاختلاف إهدائها إلى الملك الفرمند .. وكيف خضع الصلصيل لقرارهم على مضض ..

* * *

كالفهد قفز أبو زيد وتسلق شجرة باسقة تطل على القاعة الرئيسية حيث تجمع ملوك العجم وحريمهم يحتفلون ويتدارسون الموقف بعد ظهور أبو زيد وصده لهجومهم ..

ولمحهم جالسين على عروشهم حول عرش الملك الأكبر الفرمند والمارية وسط الحريم كالقمر بعد أن ألبسوها ملابس الأميرات .. وكانوا يستمعون للغناء وهم يأكلون ويشربون ..

حاول الملك الفرمند أن يعطى المارية كأسًا من الشراب فرفضت وقالت له :

– نحن بنات العرب لا نشرب إلا لبن النوق يا ملك ..

فضحك الفرمند وضحك معه الجميع ، ماعدا الملك النعمان الذى كان وهو العربى حزينًا لأسر المارية التى يعرف أصلها وفصلها .. وأخذ يتحين الفرص لإنقاذها ..

وأمر الملك الفرمند أن يحضروا العود لمارية لتسمعهم بعض غناء العرب .. الذين يعرف عنهم أنهم يعلمن نساءهن فنون الطرب ..

وعزت على المارية نفسها أن تكون مغنية تطرب أعدائها .. ولكنها أمام إصرار الملك تناولت العود وأخذت تغالب حزنها وبكائها وغنت فطرب السامعون إلا أبا زيد فقد مزقت الأغنية قلبه .. إذ كانت تناديه أن ينقذها مما هى فيه ..

ولما زاد طرب الفرمند أمر لها بكأس من الخمر ، ولكنها رفضت إطاعة الأمر وذكرت بأنها لا تشرب إلا لبن النوق والغنم .. وليست كبنات العجم ..

وهنا تدخل الملك النعمان وقد زادت به الأشجان .. وكان الملك الفرمند متزوجاً من ابنته هند فائقة الجمال .. وكان له عليه بعض الدلال..

وطلب من الفرمند قائلاً :

- اعفها من هذا الكأس .. فهي ليست كغيرها من الناس .. وتناول الكأس وشربه هو .. وقال للملك .. سوف أخذ المارية إلى بيتي بعد إذنك لتكون في الحفظ والصون حتى تنتهي الحرب .. فقد يكون من سلامتها ما يساعدنا على إملاء شروطنا..

وهنا اندفع الصلصيل معترضاً ..

- أنا الذي أحضرتها ومادام الملك الفرمند لا يريدها فأنا أحق بها .. أنا الذي كسوتها فاخر الثياب وسآخذها إلى قصري ..

وكاد تنشب بينه وبين النعمان معركة إذ جردا سيفاهما .. وكاد أبو زيد نفسه يقفز إلى الداخل ، لولا أنه تماسك حتى يرى ما ينتهي إليه الأمر .. إذا زعق الملك الفرمند في الصلصيل ونهاه وسمح للنعمان أن يصحبها إلى قصره .. حتى يفكر في الأمر وينفذ ما يراه ..

- لست أريد أن ينشب بينكما خلاف .. ولكن متى ظفرنا بهؤلاء العرب سوف نرى ما نفعله بها .. أما الآن فلتذهب مع النعمان .. حيث تجد بين أهله من تتكلم معه .. وليعاملها كأميرة وليس كأسيرة ..

ونزل أبو زيد بسرعة من على الشجرة .. وحكى لزميليه ما جرى .. وانتظر خروج النعمان فتبعه معهم إلى قصره .. حتى اطمأن على سلامة المارية .. ولما اعترض زميليه على تركها تذهب معه .. قال أبو زيد :

- إنها في بيت النعمان في أمان .. هذا الرجل النبيل .. يستحق كل جميل .. فلا يجب أن نحرجه أمام الأعجام .. وسوف نعيدها إلى أبيها بعد أيام .. حين ننتصر عليهم .. ونفرض السلام ..

واحدة بواحدة

قال الراوى..

بعد حروبهم وانتصارهم على الأعجام وصل بنو هلال إلى بلاد الشام .. ودارت بينهم وبين ملوكها وامرائها حروب يشيب لهولها الولدان ..

وكان لحكمة أبو زيد وحسن تقديره للأمور .. فضل كبير لماهم فيه من انتصار وسرور .. فقد كان يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . وكان يختار للمعركة التى يدخلها موعدها وموقعها ..

وحين وجد أن جيوش الملك برديس ملك "حلب" أقوى من جيوش بنى هلال .. من حيث العتاد والسلاح والرجال .. وافق على أن يدفعوا له عشر الأموال .. ولكنه دبر أن يرحلوا بأموالهم تحت جنح الظلام .. مما أثار غضب برديس فصمم على الانتقام ..

وخرجت جيوشه بقيادة وزيره الخزاعى تطاردهم .. حتى لحقت بهم وكان الحظ يعاندهم .. ولما برز الخزاعى يطلب أبو زيد للنزال .. خرج إليه مثقل القلب مشغول البال .. ولذا تمكن الخزاعى من إصابة الجواد فسقط أبو زيد يتخبط فيما عليه من سلاح وعتاد وهنا هجم دياب على الخزاعى ليلهيه ويعطى فرصة لأبى زيد أن يركب جواداً آخر ينجيه ..

وجال الفارسان واشتد بينهما القتال .. حتى استطاع دياب أن يضرب الخزاعى ضربة فقتله فى الحال .. وهنا هجمت جيوش "حلب" .. وقد تملك من ملكها برديس الغضب .. ولكن الزغبى دياب تصدى له فى قوة غير هياب .. حتى استطاع أبو زيد أن يجمع أشتات بنى هلال .. ويقودهم من جديد إلى القتال .. وظلت المعركة

تدور بين الجيشين .. حتى حل المساء وهبط الظلام .. ففصل الليل بين (بنى هلال) وجيوش الشام ..

وشكرا الأمير حسن لدياب ما فعله مع أبو زيد الهلالى ، لكن دياب قال له :

– يا أمير لاتبالى .. فلم أفعل سوى ما يمليه على واجبى .. وسيظل أبو زيد رغم كل شيء حبيبى وصاحبى ..

وكالعادة .. ظن الأمير حسن أن دياب يعرض بما فعله معه .. حين لامه بشده وأسمعه كلاما أوجعه .. يوم تسبب فى إشعال الحرب مع الأعجام بينما كان من الممكن أن يعبروا أرضهم فى سلام ..

حينئذ قام أبو زيد واحتضن دياب وشكره على إنقاذ حياته بتدخله فى اللحظة المناسبة فكان سبباً فى نجاته ..

وقضى الجميع الليل فى استعداد لمعركة اليوم التالى .. وهم يتعاهدون على أن يدفعوا فى سبيل هزيمة برديس كل رخيص وغالى ..

وفى الصباح خرج إليهم برديس وفى قلبه تشتعل نيران الرغبة فى الانتقام لمقتل وزيره الهمام .. وخرج إليه دياب على الفور بعد أن طلب من أبو زيد أن يترك له الدور .. واستطاع دياب بعد قتال دام طويلاً ، أن يردى برديس قتيلاً ...

فلما رأى جنوده ما حدث له زاد غضبهم .. وهجموا هجمة رجل واحد لينتقموا لملكهم .. واشتبك الفريقان وجرى بينهم الدم وسال . ووقعت النصال على النصال .. وتزلزلت الأرض من ضجيج الأبطال .. حتى أحس جيش حلب أن الدائرة قد دارت عليهم وأيقنوا من الإنكسار فلاذوا بالفرار .. وتحصنوا بأسوار المدينة التى باتت مهزومة حزينة ..

ولما أتى الصباح .. خرج التجار والأعيان وعلى رأسهم الأمير جمال بن الملك برديس يطلبون الأمان . وأن يعامل بنو هلال أهل المدينة بالإحسان .. وأقام بنو هلال فى مدينة حلب . عشرة أيام .. فى سلام واحتفالات وطرب ..

ثم تجــهزوا للرحيل قاصدين مدينة " حماه " .. محملين بأطنان مما أفتدت به حلب .. نفسها من الفضة والذهب ..

وودعهم أهلها في فرح وسرور بعد أن تصالحوا معهم وسووا ما بينهم من أمور .. إلا واحــدا من تجارها .. كـان إسـمـه كـسـاب .. لم يغـفـر أبداً لدياب قـتـله للملك برديس .. وما سببه هذا له ولتجارته من خراب ..

صلوا على المصطفى الهادى يا أولى الألباب واستغفروا المولى عالم الغيب ومسبب الأسباب ..

* * *

كـان كـساب من أشـهر تجـار المدينة وأغناهم وكـان أقرب التـجار للملك المقتـول برديس لأنه كان حلقة الاتصال مع ملك « قبرص » المسمى بالهراس ..

وكـان الهراس يسيطر على تجارة العبيد في شرق البحر المتوسط ، يخطف الأطفال من بلاد الشام والعجم ويهربهم إلى قبرص حيث يأتي تجار العبيد من أوروبا لبيعهم هناك في المزارع والمناجم ..

وكان برديس يحمي كساب ويشاركه هذه التجارة .. التي كانت تقوم على مبادلة المخطوفين بكافة أنوا ع البضائع ..

وقد حدث قبيل مقتل الهراس أن كانت قافلة كبيرة له عائدة من " قبرص " محملة بمختلف البضائع فوقعت في يد دياب والزغابة .. ولما قتل دياب برديس انقطع أمل كساب في استرداد بضاعته التى كان الاستيلاء عليها كارثة تكاد تقضي عليه وعلى ثروته .. بل وعلى مكانته عند الهراس .. فقرر أن يذهب إلى الأمير دياب يرجوه أن يرد إليه ما اغتصبه من أمواله .. فضحك دياب وقال ..

- أنا لا أعرفك يا رجل وهذه القافلة كانت ملكا لبرديس كما تدل كل الأوراق .. وكما قال الرجال المصاحبين لها .. كيف تدعى بعد ذلك أنها ملك لك .

فتوسل إليه كساب وحاول أن يشرح له العلاقة فقال :

- يا سيدى .. أنت لا تفهم ..

ولم يتركه دياب يكمل كلامه بل هب غضباً شاهراً سيفه .. زاعقًا ..

- أنا لا أفهم ياكلب حلب .. أغرب عن وجهى والله لولا سنك لقطعت رأسك .. وفر كساب مهرولا من أمام دياب والحسرة تأكل قلبه .. وخاف أن يبقى فى المدينة فهرب إلى قبرص يشكوا المصيبة لشريكه وصديقه الملك الهراس .. الذى استشاط غضباً وأقسم ليخطف دياب نفسه .. ويذيقه العذاب بيديه ..

وكان عند الهراس ثلاثة شبان من البهلوانات كانوا يشتغلون فى سيرك متجول .. ويلعبون فى الأسواق والأعياد ألعاب خفة اليد والمصارعة والمشى على الحبال . ألحقهم بخدمته وجعلهم من المقربين جداً من حاشيته وخاصته .. يرفهون عنه ويتجسسون لحسابه .. ويهيئون له كل متعة ويحققون له كل رغبة ، فلما رأوه مهموماً مغموماً .. أخذوا يروحون عنه بكل الوسائل . فلم يبتسم وجهه ولم ينشرح صدره إلا حين أكدوا له أنهم قادرين على انتزاع دياب من فوق فرسه ولو كان فى قوة "شمشون" .. وإحضاره إلى قبرص خاضعاً ذليلاً ولو كان فى "برج بابل" ..

وعلى هذا الوعد .. أسرعوا بتجهيز مركب بكل ما يحتاجونه من بضاعة وأدوات ومواد ، وأخذوا معهم من الهدايا والعطايا ما يليق بالملوك .. وأبحروا إلى اللاذقية دون تأخير ..

وكان الثلاثة يتقنون من اللغات ما يجعلهم يبدون كأنهم من أبناء البلد التى ينزلون إليها .. وقد أكسبهم تجوالهم وسط الأسواق فى كل بلدان شرق المتوسط خبرة بالناس وبالحيل والحكايات ما يشق لهم أى طريق ويسهل أمامهم كل صعب ، فقد كانوا مهرجين وممثلين ومصارعين وسحرة ..

وما أن وصلوا حتى أمنوا حراسة مركبهم وحملوا معهم ما خف وغلا من الهدايا وبدلوا ملابسهم وانطلقوا يتبعون أثر بنى هلال ..

وما أن وصلوا إلى " حماة " .. حتى طلبوا المثول أمام الأمير دياب فقد أحضروا له ولأمراء الهلالية من الهدايا ما يأخذ بالألباب ويفتح عصى الأبواب ..

– هذا ياسيدى سيف العقرب الذى يلدغ مثل العقربة السوداء فلا نجاة للمدوغ به ولو بشكة ..

– وهذا خنجر إمبراطور الهند وملك السيخ الذى يقطع الشعرة الطائرة فى الهواء..

– وهذا إبريق فضة صنعه حارس النار فى جبل " الأولمب " بنفسه هديه لأمه .. ولا يفرغ منه الماء طالما هناك غيم فى السماء ..

وفهم دياب منهم أنهم ينوون إهداء كل من هذه العجائب الثلاثة مع مملوك أشقر الشعر مليح الوجه من بلاد الغرب لا يقدر بمال . . إلى كل من حسن بن سرحان وأبى زيد الهلالى والقاضى بدير بن فايد ..

كانوا يعرفون كيف يثيرون غيرة دياب وحنقه على هؤلاء بسبب تهوره وبسبب ما به من غباء يتعلق بما يمس كرامته أو يضعه فى مرتبة دنيا عمن ذكروه من أسماء ..

– ولماذا تأتون إلىّ تطلبون حمايتى وأنتم تفضلونهم علىّ .. اذهبوا إليهم أيها الأشقياء ..

وصنع فعلهم ما قصدوه .. فطيبوا خاطر دياب وأقنعوه أنهم لم يأتوا إلا إليه .. وهذه الهدايا له يفرقها على من يشاء ويعطيها لمن يريد .. أو يحتفظ بها إن شاء .

– ومع ذلك فهديتك أكبر قيمة .. فنحن نعرف أقدار الرجال .. ياسيد أبطال بنى هلال .

ووضعوا أمامه صندوقًا يحمله رجلان بصعوبة ، ما أن فتحه حتى خطف بريق اللؤلؤ والجواهر عينيه . . وملأ قلبه غبطة وسروراً ووضع على عقله ستوراً .. وقالوا له أنهم لا يطلبون حماية غيره .. فهو وحده القادر على تأمين تجارتهم الفاخرة الغالية

خلال نقلها من اللاذقية إلى حماه .. وكان غرضهم من إهداء تلك الهدايا للمذكورين أن يأمنوا شرهم عليه .. وأن يبعدوا عنه أطماعهم ..

وأصاب كلامهم عقل وقلب دياب فى مقتل ، خاصة أنهم أكدوا له أن هذه التجارة كان يحميها برديس وأن قاتله هو الأحق بنصف الأرباح التى كان يأخذها لقاء حمايته لهم ..

قال دياب :

- سأفعل .. ولو كانت بضاعتكم تحتاج لمائة ناقة .. لقمت بحراستها بنفسى .. وسوف آتى معكم وحدى لكى أعاين بضاعتكم وأهيئ لها كل سبل الأمان ..

وعلى الفور .. ركب الثلاثة عائدين بصيديهم إلى اللاذقيه ..

وحرص دياب عل ألا يراه أحد من رجاله .. ولكنهم ما أن خرجوا من حماة حتى لاقاه الأمير عمار أخو الأمير حسن .. فناداه :

- إلى أين تقصد وحدك يا ابن غانم ؟ . ومن هؤلاء الأغراب ؟

فارتبك دياب ولكنه تمالك نفسه وقال :

- لا تشغل بالك ياعمار .. أنهم ضيوفى الشرفاء أصحبهم على الطريق لأجنبهم الغوغاء والسفهاء ..

أصر عمار أن يذهب معه على غير رغبته :

- دعنى آتى معك لأعود معك ..

لكن دياب زجره :

- وهل أنا فى حاجة إلى حمايتك .. أشكر لك همتك ولكنى كفيل بذلك فلا تتعب حالك .. وارجع ..

وعاد الأمير عمار إلى الديار ..

بين انطلق دياب مع البهلونات الثلاثة حتى أشرفوا مع الفجر على البحر .. ولم يكن دياب قد سمع أو رأى بحراً فى حياته .. وكانت الليلة بلا قمر .. والبحر هائج فارتج عليه ..

وبلغ دوى الماء أذنيه كأصوات شياطين أطلقت من حبوسها .. وأطبقت عليه أوهام الغدر والخيانه .. خاصة عندما رأى الثلاثة غير مبالين بهذا العصف والقصف الذى لا يعرفه له مصدراً ولا يفهم له سراً ولا تفسيراً ..

وكاد يصيبه المرض وأحس بدوار كأنما تنزع من بين ضلوعه .. ولما وصلوا إلى حيث السفينة رفض أن يركب معهم ولما لاحظوا ما أصابه .. ترفقوا معه وطيبوا خاطره .. وأسرع أحدهم فأحضر خيمة رائعة نصبها على الشاطئ وحين دخلها ردت إليه روحه .. وعاد إليه وعيه .. إذ كانت خيمة رائعة .. صفراء مذهبة بخيوط الذهب ومرصعة بالجوهر والمرجان والزمرد الأخضر .. مفروشة بالطنافس والأرائك .. ولما سقوه بعض الشراب انتعش .. فأخرجوا له من إحدى البقج بذله إمبراطورية مزدانة بكل فاخر وباهر .. لبسها دياب فظن نفسه إمبراطور الروم والعجم .. وعاد له إطمئنانه فابتسم . وأتوا إليه بالمأكل والمشرب .. وجلسوا حوله يطيبون خاطره ويشرحون له ماظنه من صنع الجن .. وحكوا ليه عن البحر وماوراءه .. وعزف بعضهم على السنتورى ألحاناً راقصة حتى اطمئن تماماً .. فبنجوه .. فى الحال .. وقيدوه بالسلاسل والحبال .. وحملوه إلى المركب التى سرعان ما فردت أشرعتها .. وحولت دفتها مع المد إلى " قبرص " ، إلى الهراس قاتل الرجال ..

ولما أفاق دياب فى الصباح وجد نفسه مقيداً إلى الصارى الرئيسى على السفينة .. وكل من حوله يرتدون ثياب الأغراب فتأسف على حاله وندم وعرف أنه قد أخذ غدراً من نقطة ضعفه التى تطارده أينما راح .. وهى تهوره وغروره الذى لا يفله سلاح ..

* * *

قال الراوى ..

ولما غاب دياب عم القلق الهلالية .. وحين حكى عمار ما حدث منه حين قابله مع الأغراب .. عرف الجميع أنه وقع فى مكيدة شيطانه .. وخدع بحيلة بهلوانية .. فلجأوا لأبى زيد الذى ضرب الرمل وفتح الكتاب .. فعرف أن دياب مأسور فى قبرص وأن الهراس يسومه العذاب ..

ورغم أن شماته خفية برقت فى قلب الأمير حسن .. إلا أنه لم يستسلم لها .. وطردها فى حزن وشجن . ولما رأى أبو زيد حاله .. قال له :

- يا أمير أنا سأخلص الأسير .. لقد أنقذ بالأمس حياتى وكنت قد أيقنت مماتى وسأرد له الجميل .. وتكون واحدة بواحدة ..

* * *

مغامرة فى قبرص

كعادته كلما قام بمثل هذه المغامرة اختفى أبو زيد عن الأنظار .. يفكر ويدبر ويجهز أدواته ويختار ملابسه ومواده ويضع الخطة التى ستمكنه من الفوز ..

وأخيراً ودّع الأهل والأصحاب الذين أصروا على أن يصحبه حرس خاص حتى "اللاذقية" .. وبقوا هناك ينتظرون عودته سالمًا من البحر ليسرع بعضهم بأنباء انتصاره المؤكد حتى يخرجون للقائه كما يليق به ..

وقَبل أبو زيد صحبة الحرس على مضض فهو يفضل دائمًا أن يلعب ألاعيبه الخفية بطريقة سرية .. ولذلك حين وصلوا إلى مشارف المدينة .. ودعهم ودخلها وحده ليستكمل تنكره .. ويبعد كل ما يلفت الأنظار إلى هويته ..

ثم ركب إحدى السفن المغادرة إلى "قبرص" راهبًا من رهبان دير "الجبران" ببيت المقدس .. يتحدث بلسان السريان .. ويحيط نفسه برائحة البخور وهمهمات الإيمان .. حتى صار ركاب السفينة يتبركون به .. ويعترفون له .. بل وقام بتعميد طفل ولد على المركب .

وبهر الجميع بما هو عليه من علم وما يضفيه حوله من رهبة وخشوع .. ترتفع لها أهات التقوى وتسيل بسببها الدموع ..

* * *

حين وصلت السفينة إلى قبرص .. قصد الراهب على الفور قصر الملك الهراس ليقدم نفسه إليه كرسول للملك مثقال الذى كان يشاركه تجارة العبيد واقتسام الأرباح والأموال .

ولما رأى موكب الملك الهراس خارجاً للصيد ألقى بنفسه فى طريقه بعد أن سحب المبخرة وغذها بالبخور الكثيف الدخان النافذ الرائحة حتى لفت نظر الملك .. فقدم نفسه إليه .. ودار حوله بالبخور الزكى الرائحة حتى أسكره فسأله عن هويته فقال له :

- لى عشرون عامًا أسيح فى البلاد وأزور الأديرة وجئت إليك لأحذرك من بنى هلال .. الذين يتربصون بتجارتك .. التى لم تصل منها قافلتك الأخيرة للملك مثقال مثلما حدث لقافلة كساب التى لم تصل لبرديس ولكنها كانت فريسة لدياب ..

تعجب الملك الهراس لمعرفة الكاهن كل هذه المعلومات التى لم تذع بين الناس .. ولوهلة كالبرق شك فى أن يكون الرجل مدسوسًا عليه من قبل بنى هلال .. بل همس لنفسه أنه قد يكون أبو زيد نفسه جاء يمارس عليه خدعة من خدعه ..

وكأنما قرأ أبو زيد ما يدور برأسه فقال :

- أبشرك يا مولاى إنهم في بنى هلال فرحون لاختفاء دياب الملعون فى كل كتاب والموضع الآن تحت العذاب جزاءً وفاقا على ما اقترف . والذى أرجو أن يكون بذنبه قد اعترف .. ونال ما يكفيه لقاء ما جناه بيديه الأثمتين التى لم تراعى حرمة دير أو مكانه رهبان ..

وأخذ يقرأ بعض المزامير بلغتها وهو يدور حول الحصان بالبخور يباركه ويبارك خروجه للصيد ..

- ستصيد اليوم يا مولاى .. غزالا لم تر العين مثله من قبل فى هذا المكان .. صده حيًا يا سيدى فموته قد يطلق فى الأرض روح الشيطان ..

ازداد قلق الهراس ولكنه كان قد وقع فى أسر الكاهن .. وقبل أن ينطق نظر الكاهن فى عينيه نظرة عميقة موثرة وهمس له :

- وسيقابلك غراب زاعق ناعق .. لابد أن ترديه قتيلاً . وإلا لكان ذلك نذير شؤم ، ودليلاً على أن الأمر سيكون وبيلاً ..

طلب منه الهراس أن يصحبه ليبارك رحلته ويهدئ من قلقه .. ولكن الكاهن اعتذر لأنه لا يحب أن يرى دماء الحيوانات البريئة تسيل ..

فأمر بعض حرسه أن يصحب الراهب الجليل إلى القصر ليستريح من عناء رحلته الطويلة .. وليكون في انتظاره .. عند عودته ليستزيد من بركته وخبرته ..

* * *

عاد الهراس سعيداً لأنه اصطاد ذلك الغزال الجميل الذى تنبأ بصيده الراهب .. ولكن القلق كان يعصف برأسه لأنه لم يصب ذلك الغراب الغبى الذى زعق فوق رأسه .. وخشي أن يكون ذلك دليل نحسه ..

فأسرع إلى الكاهن ليعرف رأيه ..

واستطاع أبو زيد ببراعته أن يسحر ألباب الحاضرين بفصاحته .. إذ كلمهم باليونانية والفارسية .. ورطن بالسريانية والقبطية .. وقرأ عليهم مزامير داوود .. ونشيد الأنشاد بالقبطية وطمئن الهراس أن الغراب سيأتى إليه طائعاً مستسلماً ليضعه فى قفص بناء على أمر من راهب دير الجبران ..

ثم أنه أخرج ثلاث سمكات مباركات من دير البنات، ودير جبل الكرمل .. ودير المحرق الموجود بمصر .. وأشعلها فى حضرة الهراس .. وما أن فاح عطرها فى المكان .. حتى سمع الجمع صوت غراب الشيطان يقترب ، ورأوه يدخل من النافذة طائعاً مختاراً .. ليستقر على ذراع الراهب الذى كان يتمتم بأشياء لا يعرفون لها معنى .. ليدخله فى قفص ويقدمه للهراس الذى هب من فوق كرسيه خاشعاً مذهولاً من قدرات هذا الراهب .. وطامعاً فى بركاته .. وأصبح قلبه فى قبضة أبى زيد كما أصبح غراب الشيطان المزعوم فى قبضة القفص الحديد ..

عليك الآن يا سيد الجزيرة أن تأخذ الغراب لتذبحه تحت أقدام أسيرك دياب . المقدر له أن يذوق على يدى صنوف العذاب .. انتقاماً مما فعله فى حق حفظة الكتاب ..

أمر الملك الهراس بفتح السجن أمام الكاهن أبو زيد ليتم ذبح غراب الشيطان تحت أقدام دياب ..

وتقدم بعض الحراس حاملين المشاعل .. وأشار الملك إشارة معينة ومد يده فدار لولبًا بجوار أرفف مكتبة بها العديد من المخطوطات والكتب .. فدارالجدار الذى يحمل الرفوف .. وكشف عن سرداب طويل به سلم من الحجر .. ودعا الكاهن إلى الذهاب مع الجنود ليقوم بما يجب عمله .. ثم داعبه ضاحكًا :

– لكن احذر أن تقترب كثيراً من دياب فله مخالب قد تقبض على عنقك .. ونحن فى حاجة إليك ..

وضحك فضحك كل الموجودين .. ما عدا أحد الرهبان المقربين إليه والذى أحس منذ سيطر أبو زيد على عقل الهراس واكتسب ثقته أن مكانته تتراجع وخاصة بعد أن شكك فى الكاهن الذى يدعى أنه من بيت المقدس .. والذى لم يسمع باسمه أحد..

لم يخف على الهراس موقف الراهب فداعبه قائلاً :

– لم لا تضحك .. هل داس أحد على أقدامك ..

فقال الراهب :

– أخشى أن أحدهم قد داس على قلبى يا سيدى ..

فقهقه الهراس بشدة حتى اضطر للجلوس لكى لا يسقط الكأس من يده من شدة الضحك ..

– ومن هذا الذى جرؤ على أن يفعلها ويدوس على قلبك الذى أعرف أنه قُدّ من حجر . فأصابك بكل هذا الحزن هل هو كاهن دير الجبران ؟

– سيدى .. لا .. فأنا لا أهتم ولكنى أخشى عليك .. فثقتك الزائدة هى التى تقلقنى ..

– إذن من هو ؟

– أنت يا مولاى .. لقد خدمتك على مدى عمرى .. وأحاول أن أفتح عيونك على الخدعة الكبرى التى يدفعك للوقوع فى براثنها هذا المحتال .. وأنت لا تصدقنى :

– ولن أصدق أبداً .. أن هذا الكاهن الذى يحفظ الأناجيل والتوراة .. بالعبرية والقبطية .. بل والسريانية .. لا يمكن أن يكون هو نفسه ذلك الجلف البدوى المدعو أبو زيد . .لا .. لا .. أنت تبالغ حرصاً على مكانتك عندى ..

وقام من مقعده وهب نحوه وربت على كتفه مداعباً :

– مكانتك لن ينتقص منها هذا الكاهن عابر السبيل إنه جوال ولن يطيق البقاء عندنا .. بعد .. أن ..

وهنا أضاف الكاهن فى حزن :

– بعد أن يتم مهمته ؟

هنا غضب الملك الهراس غضباً حقيقياً ..

– أية مهمة ؟ .. هل ستعود مرة أخرى للتشكيك فى نواياه .. أم للتشكيك فى ذكائى ؟ . لا .. لن أسمح لك بذلك .. هيا .. اتركونى الآن فأنا أريد أن أستريح قليلاً بعد هذا الجدل العقيم !!

* * *

ظل سلم السرداب يهبط بهم طويلاً حتى خيل لأبو زيد أنهم وصلوا باطن الأرض .. فإذا بهم أمام باب حديدى كبير أمر كبير مراقبى الحراس بفتحه فدخلوا إلى سجن عجيب منحوت بالحجر .. له عدة نوافذ عبارة عن ثقوب من الصخر تطل على البحر المتلاطم مباشرة ..

وكان دياب مقيداً . وقد اشتد الحال عليه من قلة النوم ورداءة الطعام .. وذل الأسر .. كان ذائغ العينين مشعث الشعر يعانى من بثور وجراح فظيعة من أسلحة وأدوات التعذيب .. ونار الحريق .. وكاد أبو زيد أن يفقد حذره من شدة الغضب والحقد على ذلك الهراس العديم القلب والشرف والذى يعامل مقاتلاً مثل دياب هذه المعاملة ..

لكنه تمالك نفسه بصعوبة .. وأراد أن يبدد ما قد يكون قد لاحظه مرافقوه .. فتقدم من دياب فى غضب وصاح به : " خسئت أيها اللص القاتل " ..

ثم صفعه صفعة رددت الجدران صداها ..

فاهتز دياب من غيبوبته وكاد أن يمسك به ويفتك به لولا أن قفز أبو زيد بعيداً .. فصاح دياب :

- قطع الله يمينك أيها الثعلب .. الذى يصفع سجيناً مغلول اليدين ..

فأخذ أبو زيد خنجراً من طيات ثيابه وذبح الغراب فى لحظة وألقى به على دياب فلطخته دماء الغراب وهو يصيح ..

- وأنت قطع الله عمرك من هذا السجن .

ثم استدرك ..

- وأن يكون هذا اليوم آخر أيامك على ظهر الدنيا ..

عندما رأى دياب الغراب .. وسمع ما قاله الكاهن حتى فهم أن هذا الرجل ما هو إلا أبو زيد .. وكادت تفلت منه صرخة تنادى عليه ولكن نظرة كاللهيب واجهته فانخرس لسانه ولكنه أحس براحة شديدة . وتأكد أن الحرية أصبحت على بعد خطوتين منه ..

* * *

تجول أبو زيد فى السجن مستكشفًا كل شبر فيه وعرف مداخله ومخارجه .. ودرس وحفظ عدد الحراس وأماكنهم .. واكتشف أن فى هذا السجن الحجرى المنحوت فى الصخر تحت قصر الملك .. أكثر من ألف عبد من مختلف الجنسيات يجهزون للإبحار فى عدد من السفن التى ترسو أمام الحائط الصخرى عل حاجز من الصخور يؤدى إليه سلم ينتهى بباب كهف متصل بالسجن يحرسه عدد من الحراس ..

وبعد أن رسم خطته طالب من مرافقيه اصطحابه عائدين عبر السجن إلى قصر الملك ..

واستقبله الملك الذى كان وحده بعد أن صرف رجاله وبقى يتناول الشراب والطعام مع جارية جميلة .. كانت تعزف وتغنى ..

طلب الهراس من أبى زيد أن يشاركه الطعام والسمر وأمر بانصراف بقية الحراس .. وفوجئ الكاهن بعد أن مضت عدة ساعات عليهم وهم فى سمر يتبادلون الأحاديث والنكات - وقد سحر الهراس بما حدثه عما رآه فى رحلاته التى شملت كل بلاد البر والبحر المعروفة - فوجئ بالجارية تعزف قصيدة عربية تتحدث فيها عن الصحراء حيث ولدت ورآها تغمز له وكأنها تريد أن تقول له أنها تعرفه ..

وكانت الأشعار التى تغنيها تحكى عن إحدى مغامراته القديمة .. وهنا قرر ألا يؤجل خطته أكثر من ذلك وقد تبادل الإشارات معها فأكدت له أنها عرفته وأنها معه .. ولكنه ظل يسامر الملك الهراس ويسقيه حتى بنّجه ببنج قوى .. وتأكد أن كل شىء على ما يرام .. وبسرعة وسّدهُ فى سريره .. وتركت هى عودها .. وانطلقت تساعده .

ورآها تمتشق سيفاً فظنها لوهلة على وشك خيانته ولكنها كانت تريد أن تؤكد له أنها مقاتلة أيضاً بقدر ما هى جميلة ومغنية .. وهمس لها بخطته .. وفتحا الباب المؤدى إلى السرداب وانطلقا فى ثقة نحو السجن ..

ولم يشك الحراس فى أى شىء فالراهب كان هنا منذ ساعات بأمر الملك وأكثر من ذلك كانت معه جارية الملك المفضلة التى يعرفونها جيداً ..

فتحوا له الباب وتركوه معها ليشبع رغبتها فى التشفى فى دياب والفرجة على السجن والمساجين ورفض أن يصحبه أحد منهم .. فهو يعرف طريقه جيداً .. واستطاع بخفة أن يجمع أكثر الحراس حول شراب مبنج أفقدهم وعيهم .. وفكت الجارية قيود دياب.. الذى كان فى حالة سيئة من القهر والعذاب .. وتخلصوا من بعض الحراس فى طريقهم .

ثم حدث أبو زيد العبيد الأسرى المخطوفين من بلاد عديدة بلغاتهم ففرحوا لأنه سيحررهم .. وأقسموا على طاعته فشرح لهم خطته للاستيلاء على المدينة وتخليصها

من ذلك الهراس تاجر العبيد . . وقسمهم إلى أقسام .. ووزع عليهم المهام .. ثم صعد إلى حجرة الملك وهنا لم يتمالك دياب نفسه فأيقظه بقسوة وهو مذهول مما يجرى .. وقتله ..

وبينما كان بعض العبيد المحررين يستولون على السفن ، كان البعض الآخر يخرج للاستيلاء على المدينة .. التى كان معظم أهلها يتوقون للتخلص من الهراس ..

وتجمع تجار وأعيان المدينة وطلبوا من أبى زيد أن يجلس كبيرهم على عرش الهراس .

وحملت كنوز الهراس وتحف قصره فى المراكب ورحل أبو زيد ومعه دياب إلى اللاذقية حيث وجدوا مرافقيه ما يزالون فى الانتظار .. فأرسل بعضهم يحمل البشرى إلى بنى هلال .. بعودتهم سالمين رافعين رايات الانتصار ..

* * *

الموت فى الغربة

قال الراوى ..

لما طالت الحرب بين العرب الهلالية وبين الزناتي خليفة .. وطال حصارهم لتونس الخضرا .. ظلت حربة أبو زيد التى أراد بها قتل الزناتى حين هرب أمامه والتى اخترقت الباب عالقة به .. لا يجرؤ على انتزاعها أحد ..

وكان أبو زيد يأتى كل يوم إلى باب المدينة صارخًا طالبًا الزناتى للقتال .. وكل يوم يرسل إليه الزناتي الأبطال إثر الأبطال .. فيعودون قتلى أو جرحى فى أسوأ حال .. فكتب الزناتى إلى أبو زيد يطلب وقف القتال فاجتمع رجال بنى هلال عند الأمير حسن ليتدارسوا ماذا يفعلون وكيف على الرسالة يردون ..

وبينما هم يتناقشون إذ دخل عليهم أحد العيون ، من الذين يتنكرون ويتسللون بين صفوف جند الزناتى وفى أسواق تونس يبيعون ويشترون ، وهم فى الحقيقة يتجسسون .. وأخبرهم أن الزناتي يطلب وقف القتال ، بسبب سوء الأحوال ..

وأنه أرسل لساعته خطابات إلي رجاله وإخوته ، أن يهبوا لنجدته ..

وهنا قرر أبو زيد أن يذهب مع قومه من بني زحلان ليقطعوا الطريق على القادمين قبل أن تزداد بهم قوة الزناتي .. والحقيقة أن الأمير حسن لم يكن مرتاحًا لهذه الفكرة وخاف أن ينتهز الزناتي الفرصة لو عرف بغياب أبو زيد وبني زحلان فى الغرب - وهو يعرف بغياب دياب فى الشرق فى حراسة الغنم والقطعان - فيخرج إليهم . وتدور الدائرة عليهم ..

لكن أبو زيد طمأنه أن الزناتي المهزوم لن يحرك ساكنًا إلا إذا وصلته النجدات .. وهو سيقطع الطريق عليها من كل الجهات ..

* * *

حين أرخى الليل ظلامه .. انسحب أبو زيد على رأس بني زحلان .. قاصداً بلاد الغرب ليقطع الطريق على أنصار الزناتي وإخوته .. وكانت خطته أن يتم الأمر سراً .. فلا يعرف به الزناتي ..

ولكن الريح دائمًا لا تواتي ..

فكما أرسل هو العيون لترصد تحركات جيوش الزناتي وتعرف مدى قوته .. أرسل الزناتي أيضاً عيونًا وأرصاداً تراقب حركته ..

لكن الزناتي انتظر حتى ابتعد أبو زيد .. لكي يخرج للقتال من جديد .. وخدمته الظروف خدمة جليلة .. كانت على بنى هلال كارثة وبيلة .. إذ أن أبو زيد أثناء جولة ليلية .. عقصه ثعبان أو حية جبلية .. وأصابه إصابة بالغة .. كادت أن تودى بحياته .. وأجبرته حين عاد أن يرقد عاجزاً في الفراش ..

وعلم الزناتي بما حدث .. فلم يضع الوقت .. ودق طبول الحرب في الحال .. ليشن الغارة على بني هلال وهم في كرب لغياب الأبطال أبو زيد ودياب ..

وما أن طلع الصباح .. وأضاء بنوره ولاح .. وأشرقت الشمس على الروابى الخضر والبطاح .. حتى خرج الزناتي في لباس القتال .. وطلب الأبطال للنزال ..

وتظاهر الأميرحسن بالغضب حين رأى الزناتي يصول ويجول .. وهو ينادى ويتحدى الجميع بمنظره المهول .. وندم لأنه سمح لأبى زيد بالخروج لقطع الطريق على النجدات .. ومن قبل أرسل دياب لحراسة القطعان والمال والجمال ..

فهب من على كرسيه طالبًا الخروج إليه .. وكأن لسان حاله يقول امنعونى أن أخرج إليه .. وأسرع الأمراء فمنعوه .. متظاهرين بالخوف عليه .. وقالوا له :

- لا يصح .. وماذا نفعل من بعد إذ لا سمح الله حصل مالا تحمد عقباه .. وأبو زيد في الغرب ملسوع من الثعبان .. ودياب في الشرق يرعى القطعان ..

وهنا هب الخفاجى عامر وخجل وطلب الزناتى ..

وحاول الأمير حسن أن يمنعه .. قائلاً :

- هذا لا يصح وأنت ضيف علينا .. والضيف ليس له أن يقاتل عن مضيفه ..

فرفض الخفاجى عامر وأقسم أنه إن لم يخرج لقتال الزناتى الآن .. فسوف يرحل هو ورجاله عائداً إلى بلاده ..

فالأمر الآن لا يسمح بالضيافة ..

وليس الخفاجى عامر بالذى يهرب من قتال الزناتى أو يخافه ..

والتقى البطلان فى الميدان .. وطال بينهما الكر والفر .. ولم يكن الخفاجى عامر بالمقاتل السهل .. ولا كان بالفارس الضعيف ..

وظل الفارسان يتناوبان الضرب والطعان ويتبادلان الكر والفر .. حتى كل الزناتى ومل .. ولكنه ظل يتلقى هجمات الخفاجى بمهارة .. ويبادله الغارة بالغارة .. حتى فرق بينهما الظلام .. وعاد كل منهما إلى معسكره لينام ..

وفى اليوم الثانى .. عادا للقتال وظل الحال على ما كان عليه .. فلا الزناتى بقادر أن ينال من الخفاجى ولا الخفاجى وجد الفرصة ليتلغب على الزناتى .. وظلا يدوران بين كر وفر .. إلى أن كل الزناتى ومل .. فطلب وقف القتال ..

وفى اليوم الثالث .. فر من أمام الخفاجى عامر بعد أن هده النزال ..

ولما عاد إلى المدينة وهو فى أسوأ حال .. تقدم منه ابنه مطاوع وقال :

- غداً سأختبئ يا أبى فى الميدان .. وحين يهاجمك ، أنكسر أمامه بجوارى حتى إذا ما جاوزنى خرجت عليه من وراه .. وطعنته فى قفاه وأعدمته الحياة ..

أما ما كان من أمر الخفاجي عامر .. فقد تعجب من فرار الزناتي .. وعاد إلى بني هلال .. فاستقبلوه بالأغاني والتهاني.. ولأنه كانت متعباً .. فقد راح إلى خيمته كي يستريح .. وأخذت زوجته وبناته يخففون قسوة القتال عليه .. فبدلوا ملابسه وطيبوه .. وغسلوا قدميه .. وفي فراشه أرقدوه ..

فراح في النوم من شدة التعب ..

لكنه هب فزعاً من النوم لمنام رآه فأفزعه .. وحلم قض مضجعه ..

وأسرع على صوته أهله وأعوانه .. فروى عليهم ما رآه في منامه :

– رأيت وكأن شجرة خضراء يانعة .. نابتة أمام خيمتي .. وكأنني زرعتها بنفسي ورويتها بعرقي .. فأثمرت وأينعت .. وإذ بحطاب كئيب الوجه .. خبيث الضحكات والصوت يتقدم منها .. ويجتثها من جذورها وكأنما كان للشجرة صوت يتألم .. وإن لم أسمعها .. وكأنما كانت تريد أن تتكلم .. ولكني لم أكن أفهمها ..

حاول الجميع التخفيف عنه .. وتفسير الأمر كنتيجة للإرهاق والتعب .. بعد ثلاثة أيام من القتال المرير .. وقالوا له أن الجسد المتعب يستريح بالنوم في فراشه النفيس .. والنفس المرهقة .. تروح عن حالها .. بالكوابيس ..

ولكن تابعه ظريف .. لم يشأ أن يكشف عن تفسيره المخيف ..

وقرر أن يكون في الغد قريباً من سيده .. ليحاول وقت الشدة أن ينجده ..

* * *

فوجئ الخفاجي عامر بالزناتي بعد ساعة من القتال يفعل مثلما فعل بالأمس .. ورآه يفر من أمامه .. وهو يغريه باللحاق به .. فطارده وكاد أن يفتك به .. وفجأة برز من خلف تبة هناك .. ابن الزناتي مطاوع .. وفي لمح البصر سدد سهماً نحو ظهر الخفاجي فأرداه .. ورآه ظريف يخون مولاه .. فأسرع إليه ولكن بعد فوات الأوان ..

وإن كان حز رقبته .. بينما كان الخفاجي يسقط من فوق ظهر الحصان .. كشجرة بلا أغصان ..

* * *

قال الراوى ..

عم الحزن معسكر الهلالية لمقتل ضيفهم الخفاجي بن عامر .. وارتفع الصراخ والنواح حتى عم الوديان والبطاح .. بينما عاد الزناتي إلى تونس وسط مظاهر السرور والأفراح ..

واجتمعت كل العربان تبكي في الخفاجي عامر البطل والإنسان .. وهو الجميل الصورة الرقيق الوجدان .. رثاه الشعراء وبكته النساء .. وكسر الفرسان أسلحتهم على الجثمان . ثم غسلوه وطيبوه وكفنوه وواروه التراب في تلك الأرض الغريبة .. والنفس لا تدرى بأى أرض تموت .. وللموت في الغربة رهبة .. سواء في ساحات القتال أو تحت سقف البيوت ..

وخرج الزناتي في اليوم التالي .. غير مبال بحزن بني هلال .. مطمئن البال لغياب أبو زيد ودياب ..

أخذ يدور ويلف على فرسه المجنونة .. يتحدى الفرسان كي يخرجوا ويقاتلونه :

- ما بالكم يا بني هلال ..

هل فرغ منكم الأبطال ..

أم مات الرجال ..

من سيخرج للزناتي خليفة ؟

أم إن قلوبكم خفيفة .

لا تحتمل رؤية طلعتي المخيفة ؟ !..

* * *

قطع الصمت صوت القاضي بدير قائلاً :

- لا يصح أن نسكت عليه .. لابد أن يخرج أحد إليه .. سوف أكتب أوراقًا بالأسماء .. ومن تخرج بالصدفة ورقته يخرج إليه .. مضحياً برقبته ..

قالوا : هذا أمر صواب لا يعاب ..

ولما كتبوا الأوراق .. مد القاضي بدير يده كي يخرج ورقة من يخرج لقتال الزناتي .. وأخرج واحدة .. فإذ بها ورقته ..

قال : عمري راح ..

قالوا : أنت صاحب الاقتراح ..

فقام وزار قبر الخفاجي عامر وقد أحس أن أجله قد دنا وحل موعد ارتحاله عن الدنا وأنشد يرثي الخفاجي ويرثي نفسه ..

ولسان حاله يقول .. ليس من أمر الله مهرب ..

ثم قال : إذا حل الأمر.. فليس له زيد ولا عمر ..

وشد حيله وقامته ..

وامتطى فرسه وأخذ عدته ..

ثم رمى العمامة ولبس الخوذة ونزل الميدان ..

قال له الزناتي :

- من تكون أنت من بين الفرسان ؟!

قال له :

- أنا قاضي العربان .

فسخر الخليفة وانبه وهو يقول :

– أنت قاضي وتعرف الحق من الباطل .. وتنزل لقتالي .. بل وتأتي من بلادك البعيدة لتذبح أطفالي .. وتنهب مالي .. وها قد غاب عنكم دياب وأبو زيد .. ولذا سوف ترون أن بأسي عليكم اليوم شديد ..

* * *

ولأيام طوال .. قتل فيها القاضي وعشرات من الأبطال .. جر غياب أبو زيد ودياب على بني هلال الوبال .. وجعلهم في أسوأ حال ..

* * *

حلمك يا دياب

إشتد الكرب ببنى هلال .. وضاقت عليهم الحال ..

أبو زيد فى الغرب مريض يعانى من عضة الثعبان ودياب فى الشرق يرعى القطعان من أبل وأغنام والزناتى الذى قتل الخفاجى عامر والقاضى بدير يصول ويجول طالبًا النزال والقتال منتهزًا فرصة غياب الأبطال ..

وفى كل يوم يخرج إليه فارس من الفرسان .. فلا يلبث - إن طال بينهما القتال أو قصر - أن يجندله أو يقتله .. حتى قتل أكثر من ثمانين أميرًا ما بين كبير وصغير كان أولهم وأكبرهم القاضى بدير ..

* * *

قالت الجازية للأمير حسن :

- لقد فتحت ملحمة أبى سرحان .. التى أقرأ فيها ما سيكون على ضوء ما كان بإذن الواحد الرحمن فأخذتنى الأوراق والحروف .. وصرح لى الكتاب أنه لا يقتل الزناتى سوى الأمير دياب وأنت يا أمير حسن أرسلته ليحرس القطعان وليرعى الغنم فى الوديان .. فابعث إليه كتابًا على وجه السرعة كى يعود . . قبل أن يفنى الزناتى بقية الجنود ..

فقال الأمير حسن :

- أرفعى يا جازية هم دياب عنى .. هو لن يجينى أو يسمع منى ..

فأسرعت الجازية إلى صيوانها .. وكتبت كتابًا لدياب تستنجد به وتستغيث وتستحلفه بدماء الضحايا ومنهم أخوه بدر خير الفرسان وموسى حامي العربان ومثلهم ثمانون من زهرة الشباب والشيوخ .. ولما نزعت من الكتاب .. نادت النجاب الرسول .. وطلبت منه ألا يجعل أى شئ يعطله فى الطريق وأن يضع نصب عينيه ماهم فيه من ضيق .. ثم جمعت حوله البنات العذارى اللاتى قتل أبائهم أو اخواتهم والأمهات اللاتى قتل أبنائهم .. ليخبرنه أن دموعهن ستظل على الخدود تناديه وتنظره حتى يعود . ومعه دياب دون تأخير أو غياب وأخذ النجاب سعد الكتاب . وانطلق يطوى السهول والهضاب ، ويصل الليل بالنهار لمدة عشرة أيام .. حتى وصل إلى مكان فسيح ملئ بالأشجار .. يانع الأزهار .. يحيط بمدينه عالية الأسوار فأخذ يدور حولها .. ليجد سبيلاً للدخول إليها فوجدها شيئًا يحير العقول فى المنعة ووجد على بابها الكبير لوح من الدهب مكتوب عليها تاريخها فى ألف عام .. يحكى أن أهلها كانوا من الكرام . وكان بها ألفين من الجوامع وألفين من الحمامات والأسواق .. ولا يوجد مثلها فى مصر ولا فى العراق .. ولكن الفساد بدأ يستشرى فيها .. فجاب عليها واطيها ، وسبحان مدبر الأرض ومن عليها ..

ورأى النجاب سعد بالقرب منها نهراً رائقًا وحدائق وأعناب .. وعيون ماء رائق .. فنزل عن هجينه ليريحه ويستريح .. ولكن الهجين شط عنه فلت منه وسار نحو قطيع من الجمال تألف معهم وتآلفوا معه .. فلما ذهب ليرجعه .. هاجمة رجال صاحب المكان وقبضوا عليه .. وأخذوه لحاكمهم الذى حكم بالموت عليه . جزاء تعديه على أرضه. وكان سعد قد ربى ذلك الهجين منذ الصغر لا يفارقه فى مقام ولا سفر ، يتبعه إلى أين راح .. فلما رآه مربوطًا والناس حوله فى صياح . شق صفوف الناس واقترب منه .. وأخذ يلعق وجهه بشفتيه وكأنه يهمس فى أذنيه ودموعه فى عينيه .. فكبر الناس وهللوا .. ورأى الحاكم المنظر فأذهله .. فأرسل لحراسه أن يأتوا بهذا الرجل إليه : وقال له :

– هل أنت سحار ؟

فرد سعد نافيًا ..

- لا وحق الواحد القهار .. ولكن الإنسان حين يطيع الله فى كل شىء .. يطيع له الله كل شىء .

وهنا قال الملك :

- عندك حق .. وفى بعض الأحيان يكون الحيوان أكثر وفاء من الإنسان .

وأطلق سراحه بعد أن خلع عليه خلعه ملكيه .. ولم يصدق سعد أنه نجا من الشنق فانطلق يسابق البرق ، حتى وصل إلى وادى الفضاء وبر غلام بعد المرجة الخضراء حيث دياب يقوم هو ورجاله من الزغابة ، بحراسه قطعان بنى هلال من الوحوش والديابة .

وكان هذا الأمر قد حز فى نفسه ولم يغفر للأمير حسن أنه أبعده عن القتال .. ليرعى الغنم والجمال .. وهو فارس الفرسان ، وقاهر الأبطال والشجعان ..

ولما سأله دياب عن أحوال الأهل والخلان .. بكى سعد بكاءً مراً .. وراح يقص عليه ما حدث منذ رحيله ثم غياب أبو زيد .. ومقتل القاضى بدير ومن بعده عقل وأخيه معيقل .. وما حدث لأخيه البدر .. ثم حكى قصة مقتل ضيفهم الخفاجى عامر .. ثم أخبره أن هناك الكثير من الشباب والعذارى تيتمن ومن الأمهات ترملن .. ولما سأله عن أحوال الزناتى أن كان قد رآه فأخبره بما عاينه من هول منظره .. وما سمعه عن علمه ومعرفته بعلوم النحو واللغة وعلوم الفلك والسحر والأبراج .. وكيف أن الأهل صاروا مرعوبين منه لا يجرؤ أحدهم على الخروج إليه ..

* * *

جلس دياب ساهمًا يفكر فيما فعل بنى هلال معه .. فقرر أن ينتقم لكرامته .. ليشفى نفسه من علته ومرارة نفسه وأن يسقيهم كأساً أذاقوه من مرارته . فكتب كتاباً للأمير حسن .. يطلب منه إرسال براقع بنات المتيتمين من بنات القتلى الأمراء الثمانين

وهدد بأنه لن يعود إليهم إن لم يرسلوا ما طلبه وسيظل في وادى الفضاء يرعى الأغنام ولن يشارك في القتال أو يعود إليهم .. ولو انطبقت على الأرض السماء ..

حين وصل سعد إلى مضارب بنى هلال وحده تجمعت حوله بنات المغدورين وزوجات المقتولين على يد الزناتي وهم غير مصدقين أن يرفض دياب نجدتهم والانتقام لهم خاصة وقد قتل إخوة له فيمن قتل الزناتي ..

ولكن الجازية عندما عرفت شرط دياب .. عرفت بما فكر فيه .. وعذرته لأن ما فعله حسن معه كان شيئاً لا يليق .. أهان دياب وأوقع بنى هلال كلهم في الضيق ..

فقامت على الفور وذهبت إلى ميدان القتال وأخذت تجمع تجلطات الدماء من على الأرض .. والتي جفت على الرمال فصارت مثل كبود الجمال .. ثم ملأت بعض القدور بالماء وسخنتها على النار وبعد ذلك ألقت بالدماء الجافة فاتتلت من سخونه الماء .. ثم صفت الخليط وتركته يبرد وأحضرت براقع العذارى وكتبت على كل برقع اسم صاحبته واسم زوجها أو عمها أو أخيها أو ابنها القتيل .. ثم طبقت البراقع ووضعتهم في قاع جراب وغطتهم بالتمر وقالت لسعد الهجين أو سعد النجاب ..

– إذا سألك الأمير دياب ما الذى معك في جرابك .. قل له أن هذه زوادتى فإن قال لك أطعمنى فاكبش قبضة تمر منها وقدمها إليه .. عندئذ سوف يغضب ويثور ويتهمك بالبخل وحين يهجم عليك ليأخذ الجراب منك .. لاتعطه له إلا وأنت ممسك بالشهبا فتكون تلك حصنا أميناً من غضبه وثورته .. فقال سعد لها :

– سمعاً وطاعة ..

* * *

ثم أنه فعل بالضبط مثلما قالت له .. وحين غضب دياب وانتزع منه الجراب أسرع واحتضن رقبة فرسه الشهبا كأنه يستنجد بها .. ولولا لذلك لقطع دياب رأسه .. لأن غضبه قد زاد وملك منه نفسه عندما دس يده في الجراب وأخرجها فخرجت ببرقع

زوجة الخفاجى عامر .. فاختنق من الغيظ ودس يده مرة أخرى .. فخرجت ببرقع زوجة بدر بن غانم ثم برقع زوجة موسى ..

وكلما خرج برقع فتاة أو أمراه وليس منهن إلا قريبة أوعزيزة ، انتفض دياب وصاح .. صيحة زلزت البطاح وهاج وثار ولف ودار وهو يرفع سيفه يريد أن يهدى غضبة ويفش غله .. ولم يكن أمامه سوى سعد فهجم عليه .. ولكنه لما رآه يحضن فرسه الغالية العزيزة عليه .. هدأت نفسه قليلاً وكاد يضحك من منظره وهو لابد تحت بطنها وقد احتضن ساقيها مرعوباً مقطوع النفس كالفأر المحاصر فقال له :

– عليك الأمان يا سعد والله لولا الخبز الذى بينى وبينك لكنت أطحت برأسك .. ولو كان مكانك حسن الهلالى .. لكنت مزقته ولا أبالى ..

أخذ سعد النجاب يتحرك فى بطء وهو لا يصدق أنه نجا من هذه الغضبة الهائلة ..

وأخذ يراقب دياب وهو يجز على أسنانه ويعانى من السيطرة على مشاعره التى كانت تغلى بالغضب مما فعله حسن الهلاى به وحكمه عليه أن يخرج من القتال ليعمل حارساً وراعياً للمال والجمال .. وقلبه يكتوى بلهيب الحزن على كل هؤلاء الفرسان الذين راحوا ضحايا خلو الساحة أمام الزناتى .. فى غيابه ..

كان يدور فى المكان كسبع وضعوه فى قفص .. وسعد يراقبه وقد قطع النفس .. وأخيراً .. التفت دياب إليه وقال :

– فليسمع حسن الهلالى كلمتى .. وليدفع ثمن إهانتى .. وغيبتى عن أهلى وعشيرتى .. إذهب وقل له إننى لن أركب ولن أقاتل الزناتى ولن أقتله .. إلا إن جاءنى هنا ثمانون من أمراء هلال .. ومثلهم من فقرائها ومثلهم من فقهائها حاملى القرآن .. كما أنزل على سيد ولد عدنان .. وعلى رأسهم أبى غانم وأختى غنيمه .. ساعتها سوف أعود معهم لنجدتهم ولأقتل الزناتى وأفرج عنهم كربتهم ..

ابتسم سعد في مكر وقام من مكانه تحت الشهبا وهو لا يصدق أنه نجا .. وقال له مداهنًا :

– يا فارس الفرسان ومجندل الشجعان .. ألا ترى أننا نضيع الوقت .. والزناتي يصول ويجول وينتهز هذا الغياب ليقطع الرقاب .

كاد دياب أن يعود لثورته .. ونظر لسعد نظرة أفقدته قوته وخلخلت ركبته ..

– لا تغضبني يا سعد ..

أسرع سعد يعتذر وهو يفافئ فزعاً :

– لا .. فلتعدمنى الحياة لو أننى فتحت فمى بعد ذلك .

ضحك دياب لمنظره .. ثم شهر حربته فجأة فأفزعه وشل حركته .. وقال :

– انظر يا سعد .. هذا الذئب الراقد تحت الشجرة بيني وبينك .. انظر .. إن قتلت هذا الذئب فهو بشارة بقتل الزناتي .. وإن سلم الذئب قتلتك أنت .

ثم أطلق حربته نحو الذئب لكن الذئب استشعر رفيف الحربة فقفز في خفة ذئب مذعور وفر هرباً ..

فارتعد سعد وأيقن بالممات .. وصاح :

– يرحمك الله يا سعد برحمته الواسعة .. فقد عدمت الحياة ..

وزحف كالجرو نحو الحربة يسحبها ليجد فرصته لا ستجداء النجاة ..

وما أن سحب الحربة حتى تدلت منها حية مسمرة عينيها فى سنها الحاد ..

فأخذ سعد يرقص ويقفز فرحًا كالمجنون .. كسجين فك أسره .. أو محكوم اعتقت رقبته ..

فضحك دياب لمنظره .. وقال :

– والله لولا طلعت هذه الحية مسمرة فى سن الرمح لكان رأسك مكانها يا سعد ..

فقال سعد المرعوب :

– وأنا والله يا أمير دياب .. عندما رأيت الذئب يفر .. نويت قتلك ..

فكاد دياب يختنق من الضحك .. وقال فى تبسط ..

– وأهون عليك يا سعد ..

فقال سعد وهو يسلمه الرمح بعد أن انتزع منه الحية :

– ألف ذقن ولا ذقنى .. يا روح ما بعدك روح ..

كف دياب عن الضحك فجأة وكست وجهه ملامح الغضب التى ترعب كل من يواجهه .

– هيا لا تضيع الوقت .. أيًا كان الزناتى ذئب أو حية .. فأنا قاتله .. هيا وأبلغ ابن الهلالى بشروطي .. وعد بالموكب المطلوب .. ليعود على رأسه قاتل الزناتى ..

* * *

لا آكل طعام عدوّى

لم يصدق حسن الهلالى ما قالوه أن الكتب قالت إن دياب هو الذى سيقتل الزناتى .. وقال إن هذا من الخرافات ..

أو هو من أكاذيب سعدة بنت الزناتى التى وعدت أن تفتح أبواب تونس أمام أهل حبيبها ولم تفعل ..

ويقول الراوى ..

إنه على العكس من ذلك صدق وتأكد من قراءة الرمل .. أن دياب هو قاتل الزناتى.. حتى ولو تمكن منه فارس آخر .. وحده دياب الزغابى هو الذى ينتزع الحياة من قلب الزناتى ..

ولهذا أسرها فى نفسه وأصر على إبعاد دياب بعيداً عن المعركة والنزال .. ودبر حتى اختاروه لحراسة المال من قطعان الأغنام والجمال .. وأرسلوه بها بعيداً عن ساحة القتال .. هناك فى وادى الفضاء وبر غلامس وأرض العويجة والمرجة الخضراء .. ومعه كثيرون من الزغابة وبعض العبيد والإماء ..

لكن الأمور تغيرت والأحوال تبدلت .. وبعد أن كان الزناتى يرفض الخروج من الأسوار ليقاتل .. أصبح يوميًا على الله يصول أمام معكسر الهلالية وهو يصيح فى عنجهية : هل من منازل ..

فأبو زيد هو الآخر طريح الفراش بعد أن عضه الثعبان .. ولم تجد معه المراهم والبلاسم فرقد عاجزاً مشلولاً .. لا يناجز ولا يبارز ..

وأثناء هذا قتل الزناتي العشرات من أمراء الهلالية .. واضطر حسن أن يرسل تحت ضغط الجازية وأبناء وبنات المقتولين وبناتهم لاستعداء دياب لينجز مهمته التاريخية .. ويخلصهم من المأزق الذى وضعتهم فيه غباوتهم فى فهم الإرادة الإلهية ..

ووجدها دياب فرصته للانتقام ممن يتمنون موته ولإذلال حسن نفسه ، الذى لا ينزل له من زور .. فركبه الغرور وتمادى فى إملاء شروطه ..

وبينما هو جالس في ظلال شجرة في برية الفلامس في انتظار وصول أبيه غانم وأخته غنيمة على رأس موكب يضم ثمانين أميراً وثمانين فقيراً وثمانين فقيهًا من الهلالية .. إذ جاءه بعض العبيد صارخين زاعقين مستنجدين :

- النجدة يا أمير دياب .. النجدة والغوث ..

هب الأمير دياب على حيله ..

وامتطى خير مهرة من خيوله .. وصاح بهم :

- من أى شيء تهربون وتصرخون ؟!

قالوا :

- عفريت من الجن خرج علينا مهول الخلقة طويل القامة .. رأسه فى السحاب وكعب رجله يشق التراب .. هجم علينا كالزوبعة ما أسرعه ، وبكف واحد اختطف فصيل من مالك وجمالك ورفعه من رقبته كأنه يمسك بأرنب في قبضته وحطه على السرج أمامه .. ومثلما ظهر كالبرق اختفى كلمح البصر .. وانصرف كما حضر ..

قال الراوى ..

لما حكى الرعاة لدياب ما نظروه .. وهولوا فى وصف ما رأوه .. قام من فوره وامتطى فرسه الشهبا .. التى صار لها زمان لم تخض حرباً .. ونادى عبده بدران .. وقال له :

- قص الأثر يا بدران .. وهيا نلحق بذلك العفريت من بنى الجان ..

ومضى بدران أمامه على الحصان يقرأ الآثار .. ويقوده على الطريق الذى سلكه المارد الجبار .. حتى انتهوا إلى خيمة أمامها صبية .. لها قامة ألفية .. وذات حسن وجمال .. وقد واعتدال .. وأمامها ذلك الجزور الذى سرق من صغار جمال دياب .. وهو مجزور .. مقطع على جلده أمام الباب ..

فلما رأتهما قادمين ، قامت لهما واقفة على القدمين .. حاسرة الرأس دون خمار ولا ستار ..

صاح بها دياب المهاب :

- الزمى خباك يا امرأة السوء لا رحم الله من رباك ..

صاحت به المرأة السافرة .. فى لهجة قادرة :

- الزم حدودك أيها الفارس .. فأنت هنا فى بر غلاس .. وهى أرض زوجى أبو خريبة الفارس الجبار أخو الزناتى قاهر الأشرار ..

قال العبد بدران :

- ياستار ..

والتفت فإذا بجيش جرار من مائة فارس مغوار .. صاح ما هذا ؟!..

فصاحت به :

- يا هذا .. إنه صاحب البيت جاء ليقيم بناءه .. ويحميه ويقتل أعداءه ..

سخر منها دياب .. وأمر عبده بدران بلقاء القادمين وأمره أن يقتل أفرسهم ويأتى بفرسه فى غمضة عين .

فانطلق بدران وهو لاينوى ملاقاتهم .. وعيناه تدوران فى المكان لتجد مفراً من مواجهتهم .. فلم يجد خلف التل إلا حجر ضبع ساكنة ليس فيه .. فدفن نفسه فيه طالبا من الله أن يخفيه .. وعن عيونهم يداريه ..

أما ما كان من أمر دياب فقد التفت إلى زوجة أبى خريبة .. وقال :

– أما أنا فسأذهب للتوضأ ولأصلى الفرض حتى أكون جاهزاً لملاقاة فارسك ودفنه فى سابع أرض ..

ولوى لجام فرسه وانطلق إلى عين الماء .. فى انتظار ما تأتى به الأنباء ..

أما أبو خريبة فإنه عندما وصل إلى حيث زوجته .. سألها حين رأى آثار الشهبا عمن كان فى ضيافته ..

فقالت له عقيلة زوجته :

– إنه دياب أمير من بنى هلال .. الذى خطفت هذا الجزور مما يملك من الجمال .. . وقد جاء يطلب الثأر منك ويدعوك إلى القتال ..

ارتجفت ركبتا أبى خريبة .. لكنه أخفى الخيبة .. فقد كان يعرف قبل كل الزناتية .. أن لهم فى سيف دياب مايكفى من أسباب المنيّة ..

فقال لعقيلة :

– إذن لقد تعدينا عليه .. وأغرنا على ما لديه .. فقومى فى الحال .. وخذى له ملء هذه القصعة من اللحم والزبد .. وحاولى أن ترجعيه عما ينتويه .. وعن قتالى اثنيه .. وصالحيه .. وانصحيه أن يعود من حيث جاء .. وإلا فلن يكون له بعد اليوم من رجاء ..

ضحكت عقيلة فى سرها .. وأخفت ابتسامتها فى كمها .. وقامت فجهزت اللحم والشواء وحملت منه أطيبه مع جرة ما .. وتتبعت أثر دياب حتى لحقت به عند العين ..

وكان دياب قائماً يصلى .. فانتظرت حتى انتهى من صلاته .. ثم قربت منه اللحم والزبد .. ودعته للطعام .. ليسود بين زوجها وبينه السلام ..

ولما انتهت من الكلام .. قال لها :

– يا عقيلة . . ضعى الماء الذى أحضرته أمام الفرس .. فإن شربت منه فسوف أسمع كلامك .. وآكل من طعامك ..

ولما قدمت عقيلة الماء ووضعته أمام الشهبا .. حمحمت الشهبا غاضبة ورفست القربة فسكبتها .

وهنا ضحك دياب وقال لها :

– أرأيت يا عقيلة .. أنا أكل طعام عدوى .. فقومى اذهبى إليه واجعليه ينتظر قدومى ..

* * *

كان أبو خريبة حاكمًا على هذه الأقاليم .. ولاه أخوه الزناتي عليها .. وأطلق يده فى قبائلها .. فأسرف فى الظلم حتى استجارت منه القبائل .. إذ كان يغير عليها كل حين ليخطف العذارى من بنات شيوخها وأمرائها ويضمهن لحريمه .. وكانت عقيلة ابنة أحد شيوخ تلك القبائل خطفها وأسكنها فى البرية لأنها لم تنجب له أطفالاً ..

ولذا فكرت أن دياب قد يكون منقذها من هذا العذاب .. ولذا حذرته من أبى خريبة .. وقالت لدياب أنها تريد مساعدته لكى يخلصها مما هى فيه .. ويعيدها لأهلها ..

قالت له :

– إن أبى خريبة عندما يأكل فإن الجزور كله لن يكفيه . بعدها يصبح وحشًا مقاتلاً .. لا يغلبه مائة فارس .. فاتركنى اذهب إليه .. وسوف أحذرك حتى لا تهاجمه وهو شبعان .. فتصبح هزيمته أمرًا صعبًا ..

قال دياب :

– وكيف أعرف إن كان شبعانًا أم جوعانًا ؟!..

قالت له عقيلة :

– سوف أكون خارج الخيمة فإن رأيتني أضع السرج على الحصان وركابه الشمال ناحية اليمين وركابه اليمين ناحية الشمل .. فاعرف أنه قد أكل .. وأصبح صعب المراس فلا تدعه للنزال أو للقتال ..

أما إن وجدتنى أدق بالدقماق أوتاد الخيمة .. فهو فى أسوأ حال .. فادعه للقتال ..

* * *

رأى دياب عقيلة فوق التلة تدق بالدقماق أوتاد الخيمة .. فاطمئن قلبه .. فقام وتوضأ ثم صلى .. واستلقى تحت إحدى النخلات ونام والشهبا ترعى بجواره ..

وكان بدران ما زال قابعاً فى حجر الضبع ينتظر ما ستسفر عنه المعركة .. فإن تمكن أبو خريبة من دياب خرج ليحمل الخبر المشئوم إلى الهلالية . أما إذا انتصر دياب خرج معلناً فرحته الكبرى .. يزف إلى الدنيا البشرى .. بينما كان قلبه يرتعد كلما تصور عودة الضبع فجأة وهو فى حشرته هذه التى لم تكن تخطر بباله ..

أما أبو خريبة فقد قرر أن يأخذ دياب على حين غرة بالغدر .. فحذرته عقيلة وقالت :

– هذا عار ولكن لترى همتك فندعوك الفارس الغدار .

ومع ذلك ركب فرسه ومضى صامتًا يريد أن يفاجئ دياب لكن الشهبا شمت رائحة الحصان فأسرعت نحو دياب وصهلت فوق رأسه .. فأيقظته .. فأسرع دياب وامتطى الشهبا فلم يتمكن أبو خريبة من مفاجأته كما كان يتمنى .. فوقف كل منهما يتفاخر بقوته ويهون من شأن صاحبه .. فيثير غضبه .. حتى لم يعد هناك بعد الكلام كلام .. فحمل كل منهما على الآخر كالصاعقة ولما وجد أبو خريبة قوة خصمه .. أخذ يغريه بالمال والجمال .. أن يوقف القتال ويمضى كل منهما إلى حال سبيله .. ولكن دياب المرصود لقتل الزناتى لم يكن ليفعل المصالحة مع أخيه .. الأقل شأنًا منه .. فهجم عليه وكر حتى لم يعد هناك مفر .. فضربه ضربة كانت القاضية .. فوقع على الأرض يتخبط فى دمه ..

وحين رأى بدران ذلك حاول الخروج ولكن الضبع كان قد أتى .. فلما رآه زام وهجم عليه لولا أن وجد فرع سنط جاف إلى جواره .. فأخذ يضربه به وهو راقد فى الجحر والضبع يحاوره ويناوره .. حتى ضربه ضربة فوق رأسه .. ففقأت فرع السنط إحدى عينيه .. فجرى مهزماً .. يصرخ من الألم .. وانتهزها بدران فرصة .. كى ينطلق إلى حيث كان دياب قائماً بفرسه على رأس جثة أبى خريبة .. فهنأه بالنصر .. وأحضر سيفاً وأراد أن يقطع رأس القتيل .. وكان لأبى خريبة شوارب طوال يتحدث عن طولها العيال والرجال .. ولذا حركها الهواء عندما مالت الرأس حين مسها على الرمال .. فانفزع بدران وانخلع قلبه وقفز مذعوراً إلى الخلف ليسقط فى بركة من مياه الخيل والدماء ..

فنزل دياب ضاحكاً من منظره .. فقطع الرأس وحطها فى مخلة الجواد .. وتوجه إلى خيمة عقيلة .. فأصرت أن تضيفه .. فأبى .. وقال :

– كريم الخصال لا يدخل ضيفاً فى بيت بلا رجال ..

فأكبرت عقيلة موقفه وطلبت منه أن يعيدها إلى أهلها .. وقد وقع حبه فى قلبها ..

وأرادت أن تركب خلفه على الفرس .. فلم يوافق .. وأرسل بدران ليحضر جملاً عليه هودج أركبها فيه .. ومضى بها والعبد يسحب الجمل وراءه حتى وصل إلى مضارب قبيلتها .. فخرج أهلها على صوت زغاريدها .. والتفوا حول دياب يشكرونه وعندما أخبرهم أنه قتل أبى خريبة لم يصدقونه ..

فقال دياب لبدران ..

– هات الرأس من المخلة ..

وحملها بدران يريهم إياها .. فهبت الريح وحركت الشوارب .. ففر كل الأقارب وخرجوا مرعوبين من المضارب .. فضحك دياب من جبنهم وصاحت عقيلة بهم فعادوا .. وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون الأخرى .. وأراد والد عقيلة أن يكرمه .. فعرض عليه أن يهب له ابنته ..

فقال له دياب :

- هل لها إخوة ياشيخ ؟..

فقال الشيخ مباهياً مفاخراً :

- طبعاً لها عشرة إخوة من الرجال والأبطال ..

فسخر دياب وقال :

- هذا واضح وفاضح يا شيخ .. أشكرك على هديتك .. ولكنى لا أستطيع قبولها فتلد لى أبناء فى شجاعة أخوتها ..

ولوى لجام الشهبا وتبعه بدران .. وعادا إلى مضاربهم.. ثم أرسل بدران إلى بنى هلال حاملاً رأس أبى خريبة .

* * *

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٨٨٢ / ٢٠٠٥

الحمد لله الذى جعل سيرة الآباء و تاريخ الأجداد عبرة تنير طريق الأولاد ، وخبرة يتوارثها الأحفاد . ولما كانت سيرة " بنى هلال" من أجمل ما رواه الرواة ، ومن أحلى ما تغني به الشعراء فى الأفراح وليالى السهر وأمسيات السمر، وتناقلتها الأجيال عبر السنين، وحفظتها ذاكرة المصريين وغير المصريين . لذا وجدنا أنه واجب لاغنى عنه أن نعيد رواية أجمل ما جاء فيها من حكايات إنسانية وصور و نماذج بشرية فى أكثر مناطقها وأحداثها درامية فى صياغة جديدة تناسب مزاج الأجيال الجديدة وبطريقة ممتعة ومفيدة ، محاولين الاحتفاظ لها بطبيعتها القديمة الفريدة.